بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى
الجزء السادس – البحث الثاني
في آداب الرحلة

القاهرة زمن المماليك الجراكسة

في عيني الرحالة الألماني أرنولد ڤون هارف

(١٤٩٧م/ ٩٠٢هـ)

دراسة تحليلية نقدية مقارنة بمصادر الرحالة الأوربيين المعاصرين

الأستاذ الدكتور

فايز نجيب اسكندر

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
ورئيس قسم التاريخ الأسبق
كلية الآداب – جامعة بنها

توزيع دار النهضة المصرية

٩ شارع عدلي – القاهرة

رقم الإيداع بدر الكتب المصرية ٨٣٠٢ / ٢٠١١

الترقيم الدولي 977-200-628-6

مقدمـــة

يعد أدب الرحلة في كتابات الرحلة الأوربيين الذين زاروا مصر زمن المماليك الجراكسة، منبعاً حقيقياً لعديد من مظاهر الحياة خاصة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والدينية. فالرحالة الأوربي أثناء تجواله يعمل حثيثاً على تركيز عينيه فيما يشاهد من غرائب الأمور غير المعتادة في بلاده ، فيرصدها ويعلق عليها؛ وأحياناً يقارنها بمثيلاتها في وطنه. ومن الطبيعي أن يختلف رحالة عن آخر في مدى دقة ملاحظته، وفي درجة ونوع اهتماماته؛ كما يختلف أحياناً في مدى صدقه وأمانته ومدى جنوحه إلى المبالغة وخاصة العددية، وهي سمة من سمات العصر الوسيط الذي لم يعرف الإحصاء آنذاك.

ومع ذلك، تضيف كتابات الرحالة الأوربيين لعديد من المعلومات العجيبة والغريبة التي لم يرد ذكرها في المصادر التاريخية، خاصة فيما يتعلق بنظم وحضارة وعادات وتقاليد ذلك العصر، علماً بأن الرحالة –عادة– يكون أكثر صدقاً فيما يسجله من المؤرخ؛ الذي يض في الحسبان انتقام السلطان منه إذا سجل في مصدره مالا يرضيه. وإذا كان المؤرخ يشغل منصباً مرموقاً يتقاضى منه دخلاً كبيراً، فإن كتاباته تحتاج إلى مزيد من التمحيص حتى نستخلص منها – قدر الاستطاعة– ما يتوافق مع الحقيقة والواقع.

على أية حال – فمن أبحاثي التي جاوزت الخمسين– أفردت أربعة أبحاث شاركت بها في مؤتمرات علمية دولية وعربية، عن بعض الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر –خاصة عاصمتها القاهرة– زمن المماليك الجركسه. وكان أول هذه الابحاث عن (مصر فى كتابات الرحالة) الروس في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين" وثانيها : تناول رحلة جوس فان غستل Joose Van Ghistele، وثالثها : استعرض ما سجله الرحالة والسفير الفرنسي جان ثونو Jean Thenaud عن رحلته إلى العاصمة المصرية؛ ورابعها : عن الرحالة الفارس الألماني أرنولد فون هارف Arnold Von Harff والذي شاركت به في المؤتمر العالمي الخامس عشر لمؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات الذي أقيم في زعوان بتونس في الفترة من ١٨

إلى ٢١ أكتوبر ٢٠١٢. وحرصت – كحل غيره من الرحالة الأوربيين سالفي الذكر – على استعراض ما أورده أرنولد في سفر رحلته، ولم أكتف بذلك، بل عقدت دراسة تحليلية نقدية مقارنة مع غيره من الرحالة الأوربيين العديدين المعاصرين له.

ولم يغرب عن ذهني إيراد عشرة رسومات تتعلق بما جذب انتباهه أثناء زيارته للقاهرة. وتدل هذه الرسومات على أنه يتمتع بموهبة فذة في الرسم؛ كأنه يلتقط بعينيه صوراً فوتوغرافية حرص على أن تكون بالغة الروعة والجمال والتعبير.

هذا وتعد الكتابة في أدب الرحلة عند الرحالة الأوربيين مجالاً جديداً لدارسي التاريخ والحضارة، ولكنه صعب الغوص في مصادره؛ لكونها في الأسلس مصادر أجنبية وليست عربية. لذا قلما أقدم عليه الباحثون العرب على ترجمتها وتمحيصها ؛ وبالتالي تعد الأبحاث الأربعة سالفة الذكر، إضافة جديدة إلى المكتبة العربية.

والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه

الإسكندرية في ٢٧ أكتوبر ٢٠١٢

أ.د/ فايز نجيب إسكندر
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
ورئيس قسم التاريخ الأسبق
كلية الآداب –جامعة بنها

القاهرة زمن المماليك الجراكسة

فى عينى الرحالة الألمانى أرنولد فون هارف

(١٤٩٧م/٩٠٢هـ)

دراسة تحليلية نقدية مقارنة بمصادر الرحالة الأوربيين المعاصرين(*)

أ.د/ فايز نجيب إسكندر
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب – جامعة بنها

- **مقدمة(**)**

حاول الإنسان منذ دب على الأرض اكتشاف أسرارها والتنقل من موضع إلى آخر بحثا عن حياة أفضل، فأضحت حياته رحلة دائمة لا تتوقف إلا على تخوم الأبدية.

ويغطى الرحالة حين يسرد ما رآه جميع نواحى الحياة أو يكاد، إذ يتوفر فى سرده ما يهم المؤرخ والجغرافى وعالم الاجتماع والاقتصاد ومؤرخى الآداب والأديان والأساطير. فالرحلات منابع ثروة لمختلف العلوم، وسجل حقيقى لمختلف مظاهر الحياة؛ لكون الرحالة يحرص على تدوين المعاين فى غالب الأحيان، من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة خلال رحلته؛ وبالتالى يمثل دور الناقل لكافة المظاهر سالفة الذكر، إذ يشاهدها أو يسمعها فيدونها فى سفر رحلته. وبذلك كان للرحلات قيمتان عظيمتان: قيمة علمية،

(*) شاركت بهذا البحث فى المؤتمر العالمى الخامس عشر لمؤسسة التميمى للبحث العلمى والمعلومات عن "أدب الرحلات شرقا وغربا" المقام فى تونس زغوان فى الفترة من ١٨ إلى ٢١ أكتوبر ٢٠١٢.

(**) اختصارا لصفحات البحث، سنكتفى بذكر المصادر والمراجع كاملة حين ترد لأول مرة فى الحاشية تجنبا لتخصيص صفحات عديدة لقائمة المصادر والمراجع فى آخره.

وأخرى أدبية. فعيون الرحالة كآلة تصوير، تصور واقع ما يراه وواقع يجذب أنظاره، وواقع غريب لم يتسن له رؤيته من قبل، وغرائب يسعى لالتقاطها تسجيلا؛ كما يسجل أيضا كل جميل وكل قبيح لنحظى بصورة حية التقطت؛ والتى – فى أغلب الأحيان – لا تكذب ولا تتجمل.

هذا وقد التزم الرحالة والفارس الألمانى بذلك، إذ انتهز مهارته فى فن الرسم ليزود مصنفه بعشرات من الصور بالغة الوضوح، تُزيد وضوحاً ما يسرده؛ منها على سبيل المثال لا الحصر صورة فارس مملوكى يمتطى صهوة جواده ومعه معداته القتالية؛ وصورة محارب من المماليك متمنطق بسيفه؛ وصورة لأسلحة الفارس المملوكى. كما رسم المكارى الذى يقود الحمار الذى تمتطيه إحدى النساء؛ رسمه كغلام يتميز بالبساطة فى الملبس، كما يبدو عارى القدمين وفى يده اليمنى عصاته التى يسوق بها حماره، وفوق رأسه عمامة تلتف حول طاقية. وكانت صورة السلطان الناصر محمد بن قايتباى أروع تلك الصور على الإطلاق. وسنتحدث عن ذلك فى صفحات تالية.

والملاحظ فى أحيان كثيرة وجود اختلاف بين تسجيلات الرحالة؛ ويرجع ذلك إلى دقة وصفهم ودرجة اهتمامهم ومدى صدقهم وأمانتهم وتنوع فهمهم للأمور.

كانت مصر منذ القدم ولازالت جاذبة للرحالة والحجاج المسيحيين والسياح بسبب آثارها التى تسجل تسلسل تاريخها على مر العصور. وقد اعتاد معظم رحالة العصر الوسيط – بمجرد عودتهم إلى بلادهم – على تسجيل الطرق التى سلكوها حين انتقلوا من مدينة إلى أخرى، و كيفية مواجهة مصاعب الطريق ومشقاته، والأحداث التى صادفوها، وما رأوه فى مصر من آثار أبهرتهم بضخامتها وروعة مبانيها ومنشآتها؛ هادفين من ذلك العمل على نفع غيرهم وهدايته، وإظهار أهمية البلاد التى زاروها. وبالتالى كانت مصنفاتهم خير مرشد لكل من يسعى لزيارة مصر، وتتبع ما بها من مزارات؛ كما كانت أيضا – وبطريقة غير مباشرة – خير دعاية لجذب الرحالة الأجانب إلى مصر، وصفحة

مبكرة بالغة الأهمية لمعرفة بعض أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية والفكرية. وأوردت أحيانا أخبار السفارات الأجنبية الوافدة على بلاط السلطان، مع الحرص على وصفه، ووصف مراسم استقبال السفراء وما حملوه من هدايا.

والجدير بالذكر أن المؤرخ يتغاضى عن ذكر العادات والتقاليد وأحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية التى تبدو فى عينيه وفى أعين سكان البلاد شيئا مألوفا لا جديد فيه؛ إلا أن ذلك يظهر من الأمور الغريبة عندما تلتقطها – لأول وهلة – أعين الرحالة، لذا يحرصون على تسجيلها فى مصادرهم، وتعد كتاباتهم أفضل تشجيع لزيارة مصر، لكونها بمثابة لوحة أخاذة للمكان والزمان والإنسان، تثير اشتياق كل قارئ لها للإسراع بزيارتها.

ولا يفوتنا ذكر أن المؤرخ حين يؤرخ لأحداث عاصرها، تخضع كتاباته لضغوطات لا يقوى على مواجهتها، فيجنح دائماً إلى كتابة مع يتناسب مع الحاكم خوفا من بطشه. وبالتالى ينبغى على الباحث تمحيص رواياته قبل تسجيلها؛ هذا بينما الرحالة، حين يرحل إلى بلاده ويكتب أخبار رحلته، تكون كتاباته غير خاضعة لأحد إلا لعينيه؛ وبالتالى تكون المصداقية فيها أكثر، وإن كان فى كثير من الأحيان يرضخ لأهوائه الدينية والمذهبية، والمبالغة العددية أيضا.

ولقد حظيت مصر فى عهد المماليك الجراكسة (٧٨٤ – ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢–١٥١٧م) – خاصة فى العقدين الثامن والتاسع من القرن الخامس عشر الميلادى – بتوافد العديد من الرحالة الأوربيين[1]، أتوا لزيارة معالمها الدينية. فالحج كان منتشرا منذ فجر المسيحية، وازداد كثرة مع مضى القرون. واعتبرت

---

(١) فى مساء ١٥ نوفمبر ١٩٨٨، ألقيت محاضرة فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بعنوان: "مصر فى كتابات الحجاج الروس فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين: طبعت فى كتاب – القاهرة ١٩٨٨؛ كما أعدت طبعها فى الجزء الرابع من سلسلة "بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى – القاهرة ٢٠٠٧ – البحث الرابع – صفحات ١٨٥–٢٤٣.

مصر أرضاً مقدسة اعتاد الرحالة زيارتها بغية زيارة الأرضى المقدسة فى فلسطين. كما تعد سيناء أرضا مقدسة بمثابة القدس، إذ ازدادت أهميتها بعد أن أصبحت مركزاً لحركة الرهبنة والديرية. لذا، لم يكن غريبا على العالم اللاهوتى الأب لوى ديشزن Louis Duchesne أن يذكر فى موسوعته "تاريخ الكنيسة القديم" Histoire Ancienne de L'église أن: "مصر أرض مقدسة كالقدس، وأنها ازدادت قداستها بعد أن أصبحت مركزاً لحركة الرهبنة والديرية".[١]

وقد سبق لها أن تمتعت بمنزلة خاصة منذ فجر الإنسانية بعد أن ارتبط اسمها بالعبادات القديمة، فعلى أرضها بدأت عبادات القمر والشمس والجبال وآلهة القوة والخير والموت، ومنها بزغت الخطوات الأولى نحو التوحيد. كما ارتبطت سيناء بسيدنا موسى عليه السلام، إذ توجه إليها على رأس قومه العبرانيين هربا من طغيان فرعون مصر، وفوق أرضها ناجى الله وتحدث إليه. كما شهدت أيضا رحلة العائلة المقدسة إلى مصر التى ضمت المسيح عيسى بن مريم عليه السلام مع والدته السيدة العذراء مريم ويوسف النجار هروباً من بطش هيرودوس.

هكذا تباركت مصر برحلات الأنبياء والرسل والقديسين فى كل مراحل تاريخها، فاختار الله عز وجل سيناء لتكون قدس الأقداس بالنسبة لمصر، والأرض المقدسة لكل الأديان. وزاد من قداستها أن شهد جبل سيناء بناء كنيسة سانت كاترين، تلك الكنيسة التى يحج إليها المسيحيون منذ القرون الأولى للمسيحية إلى يومنا هذا.

مما تقدم، اعتبرت مصر أرضا مقدسة – كما سبق القول – لذا كان أغلب الحجاج يضعونها فى برنامج زياراتهم بعد القدس مباشرة. وقد وصلتنا كتابات عديدة من حجاج العصر الوسيط؛ وتعد رحلة بوستوميان Postomian – وهو من

(١) Duchesne, L., Histoire Ancienne de L'eglise, Paris, 1952, t.II, pp. 486-487.

أهالى ناربون Narbonne بجنوب فرنسا – أقدم تلك المصادر، إذ تعود إلى مستهل القرن الخامس الميلادى.[١]

● **سيرة الفارس الألمانى أرنولد فون هارف:**

أما الفارس أرنولد فون هارف Arnold Von Harff فهو ينتمى إلى أسرة ألمانية نبيلة عريقة، كانت تقطن جنوب نهر الراين. وقد أشير إلى أحفاده منذ القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، حيث سجل إقامتهم فى قلعة هارف Harff، تلك القلعة التى آلت فيما بعد إلى ذرية أخرى. وخلال العصر الوسيط برز أسماء العديد من أفراد أسرة آل هارف فى عداد نبلاء بلاط أدواق جوليش Jülich.[٢]

هذا وقد امتلكت أسرة آل هارف أملاكا شاسعة عن طريق الشراء تارة، أو بالميراث تارة ثانية، أو بالمصاهرة مع أسر إقطاعية نافذة تارة ثالثة.[٣]

ولد أرنولد فى هارف بالقرب من كولونيا Cologne وذلك سنة ١٤٧١م.[٤] وطبقا لكافة مخطوطات رحلته حسب قول بول بليزيه[٥] Paul

(١) Duchesne, t. II, pp. 486 – 489; Denys Gorce, :L'Hospitalité et le port de lettrés dans le monde Chrétien des 4 ème et 5 ème siècles, Paris, 1925, pp. 237 – 238; Lagrange, le Judaïsme avant J – c., Paris, 1935, pp. 103-104; Bardy, les premiers temps du Christianisme. Paris, 1940, pp. 94-97.

(٢) Dopp, P. H., Le Caire vu par les voyageurs occidendaux au moyen âge, Arnold Von Harff, 1497, in Bulletin de la société de géographie d'Égypte, 9/1954, t. XXVII, p.32 وسنشير فيما بعد إلى هذا التحقيق تحت اسم Dopp.

(٣) Bleser, P., Le Pélerinage du Chevalier Arnold Von Harff, in Orbis Biblicus Orientalis, 95, 1990, p.59 وسنشير فيما بعد إلى هذا التحقيق – وهو الأفضل على الإطلاق – تحت اسم Bleser. انظر أيضا: Letts, M., The Pilgrimage of Arnold Von Harff, London, 1946, pp. I-II. وسنشير إليه بـ Letts.

(٤) Dopp, p. 32.

(٥) أتقدم بالشكر للعالم الجليل الأستاذ الدكتور/ أسامة أحمد حميد أستاذ الجغرافيا بآداب بنها الذى زودنى بأحسن تحقيق لهذا المصدر بعد أن فشلت فى العثور عليه. ويُعِد الأستاذ الدكتور/ أسامة موسوعة بعنوان "موسوعة جغرافية مصر – كتب الخطط والرحلات" – الجزء الثالث – تحت الطبع.

Bleser – الذى يعد أفضل من حقق مخطوطه – بدأ أرنولد رحلته فى السابع من نوفمبر سنة ١٤٩٦م، وانطلق فى رحلته العودة ثانية إلى كولونيا مساء التاسع أو العاشر من نوفمبر سنة ١٤٩٩م. أى أن رحلته استمرت ثلاثة أعوام تقريبا.[١] وقد أهدى مخطوط رحلته إلى الدوق جييوم دو جوليية Guillaume de Juliers وزوجته سيبل Sybille. ويبدو أنه أصبح متداولا آنذاك فى ألمانيا واطلع عليه كثيرون ونسخوه؛ ويؤكد هذا القول العالم الفرنسى ب. هـ. دوب فى بحثه "القاهرة فى عيون الرحالة الغربيين فى العصور الوسطى".[٢]

ونشر هـ. فون جرووط E. Von Groote باللغة الألمانية كتاب رحلة أرنول فون هارف فى كولونيا سنة ١٨٦٠م وذلك لأول مرة[٣]، معتمدا فى تحقيقه هذا على ثلاثة مخطوطات تملكها أسرة آل هارف[٤] Harff، وأورد فيه العديد من الرسومات التوضيحية، أتقن رسمها الرحالة أرنولد الذى يبدو أنه كان من هواة الرسم، وبذلك انفرد دون غيره من معاصريه برسم الكثير مما أعجبه من مشاهد.[٥]

---

(١) Dopp, p. 32; Letts, p. III; Bleser, p. 63.

(٢) انظر: Dopp, p. 32. وعن الدراسة التحليلية النقدية لهذه المخطوطات انظر: Bleser, pp. 60-63.

(٣) Die Pilgerfahrt des Ritters Arnold Von Harff Von Cöln durch italien, Syrien, Aegypten, Arabien, Aethiopien, Nubien, Palästina, die Türkei, Franchreich und Spanien, wie er sie in den jahren 1496 bis 1499 vollendet, beschrieben und durch zeichnungen erlaütert hat. Nach den Ältesten Handschriften und mit deren 47 bildern in Holzschnitt herausgegeben von Dr. E. von Groote, Cöln, J. M. Heberle (H. Lempertrz), 1860, in 8°, L1 ÷ 280 pages. وسنشير إلى هذا المصدر فيما بعد بـ E. Von Groote.

(٤) Dopp, p. 32; Bleser, p. 62..

(٥) انظر على سبيل المثال الرسم الوارد فى صفحة ١١٤. و فيه رسم "أحد الفرسان العرب يمتطى جواده". (انظر: E. Von Groote, p. 114.) والرسم الوارد فى صفحة ١١٧ حيث رسم "أحد التجار من القوافل التجارية فوق جمله، ويقوده تابع". انظر: E. Von Groote, p. 117. وقد أغفل دوب إيراد هذه اللوحات، بينما أوردها كل من ملكولم لتس Malcolm Letts الذى ترجم مصنف أرنولد فون هارف إلى الإنجليزية، وكذلك بول بليزيه Paul Bleser الذى ترجمه إلى الفرنسية والذى يعد مصنفه أحد أدق الترجمات – كما سبق القول – لكونه صحح أخطاء سابقيه.

أما الرحالة **اليهودى الثرى مشولام بن مناحم** الذى زار مصر سنة ١٤٨١م فقال: "إن القاهرة تحتاج أكثر من مجلد لوصفها، وأن عدد سكانها يبلغ نصف مجموع سكان روما وميلانو وبادوا وفلورنسا وأربع مدن أخرى من أعاظم المدن الأوربية." [١]

واكتفى **فرنسسكو سوريانو** Francesco Suriano –وهو من أسرة ذات أصول سورية ولد فى البندقية سنة ١٤٥٠م– وزار القاهرة سنة ١٤٩٤م واكتفى بالقول إن سكان القاهرة لا حصر لهم.[٢]

فى حين نجد **دومينكو تريفينزانو** Domenico Trevisan تجاهل ذكر مساحة القاهرة، واكتفى بالقول "إن المدينة تعج بسكانها... ويعتقد أن عددهم يصل إلى مليون ونصف مليون نسمة، غالبيتهم العظمى من الرعاع والبؤساء"[٣]. والملاحظ أن فى قوله هذا مبالغة واضحة، لعدم وجود تعداد إحصائى آنذاك. أما غريمه **جان ثونو**، فقد اكتفى بالقول: "إن هذه المدينة شاسعة المساحة، إذ تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة باريس؛ أما تعداد سكانها، فيبلغ خمسة أضعاف سكان العاصمة الفرنسية." [٤]

- **حصوله على تصريح للتنقل بحرية فى السلطنة:**

هذا عن ما سجله أرنولد عن الكثافة السكانية فى القاهرة، ومقارنته بغيره من الرحالة الأوربيين. وقد أورد أنه التقى فى العاصمة المصرية باثنين

---

(١) انظر: Dopp, Meshulam Ben Menahem, t. XXVI, p. 119; Adler, Jewis Travellers, p. 116.

(٢) جاء فى هذا المصدر: "La ville a une Population innombrable.". انظر: Dopp, Francesco Suriano, p. 28.

(٣) جاء فى مصدره: "La ville est bien peuplée ... on croit que La population s' élève au chiffre d'un million et demi d' Âme.". انظر: Le voyage d' outremer, pupliè par ch. Schefer, paris, 1864, pp.207-208.

(٤) والملاحظ أن جان ثونو لم يزودنا بتفاصيل عن مساحة القاهرة وتعدادها السكانى، إذ اكتفى بتناول ذلك فى سطرين قائلا: "Ceste Cité Unie et assemble est trios foys aussy grande que Paris et peuplée cinq foys plus.". انظر: Thenaud, p. 46.

من المماليك من أصل ألمانى، الأول: من مواليد مدينة بازل[١] Basel، وكان يدعى كونراد من بازل Conrad von Basel قبل أن يصبح مملوكا: والثانى: مسقط رأسه دانزج[٢] Danzig وارتبط معهما بصداقة حميمة، وساعداه فى جولاته فى كافة ربوع القاهرة. وبفضلهما حظى بتصريح مكتوب من السلطان الناصر أبى السعادات محمد بن قايتباى (٩٠١-٩٠٤هـ/ ١٤٩٦- ١٤٩٨م) يخول له الطواف بكافة البلدان الخاضعة لسيادة سلطنة المماليك الجراكسة، ألا وهى: بلاد الشام ومصر وبلاد العرب والأراضى المقدسة – أى فلسطين – وحلب وأرمينية الصغرى وكافة البلدان الأخرى الخاضعة لسيادته.[٣]

- **محاولة السلطان معرفة الإمكانيات العسكرية للملك الفرنسى:**

وعندما علم السلطان أن أرنولد وافد من إحدى البلدان الأوروبية، أصدر أوامره إلى المملوكين الألمانيين باستدعائه للمثول بين يديه بدار السلطنة بالقلعة، لكون أرنولد من الموهوبين فى الرسم، فانتهز تلك المقابلة ليرسم السلطان الشاب

---

(١) "بازل" Basel (فى النسخة الألمانية، انظر: .E. Von Grotte, p. 86 وكذا فى الإنجليزية، انظر: Letts, p. 102) وبال Bâle فى النسختين الفرنستين. انظر: Dopp, p. 35; Bleser, p. 80. وهى حاليا مقاطعة سويسرية تشتهر بصناعة الأدوية، وتقع غرب برن Berne وشرق أرجوفيه Argovie وجنوب سولور Soleure وشمال دوقية باد Bâde الكبرى. للتفاصيل انظر: .Bouillet, p. 166.

(٢) بدلا من ذكر اسم المدينة ا لتى ولد فيها، كتب كل من دوب ولتس أنه ولد فى الدانمرك (انظر: (.Le Caire, p. 35). أما هـ. فون جروت Groote فقد ذكر أنه ولد فى دانزيجرس Danzigers (انظر.p. 86) فى حين أورد بليزيه أنه ولد فى دانزج Danzig من الدانمرك؟ ?Du Danemark أى أنه غير متأكد أنها فى الدانمرك. (انظر: Bleser, p. 80). وبالفعل لم نجد دانزج فى الدانمرك (انظر: Bouillet, p. 495) ودانزج مدينة وميناء فى بروسا Prusse، وتقع على الضفة اليسرى لنهر الفستول Vistule بالقرب من مصبه، وتبعد عن برلين بـ ٣٨٠كم. للتفاصيل انظر: .Bouillet, p. 498 وعن بروسا انظر: فايز نجيب اسكندر: القاهرة زمن المماليك الجراكسة فى عينى الرحالة جوس فان غستل، البحث الرابع فى كتابى بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى، ص١٤٧، حاشية ٨٠.

(٣) .E. Von Groote, p. 86; Letts, p. 103; Dopp. p. 35; Bleser, p. 81.

يعرف عقوبة هذا التدليس، إذ أورد أنه إذا اكتشف أمره، لفقد حياته وأمواله.[١] ويعد هذا تصرفا يتنافى مع الأخلاق الحميدة التى ينبغى أن يتحلى بها هذا الفارس والحاج النبيل. إضافة إلى ما تقدم، كان على الرحالة دفع ١٠% من قيمة ما جلبوه معهم من بضائع؛ إذ بمجرد إنزالهم على الشاطئ، كان عليهم المرور بمكتب التفتيش الجمركى المقام على رصيف الميناء، والمكلف بتحصيل الرسوم سالفة الذكر بعد تفتيش كافة حقائبهم.[٢]

= بينما يكتفون بعدد الدوكات. وكان روجر الثانى Roger II حاكم أبوليا Apaulie أول من ضرب الدوكات. وفى ١٢٨٤م، ضرب دودج البندقية جان داندولو الدوكات البندقية. ولقد وصف القلقشندى الدنانير الأفرنتية (وهى عملات ذهبية ضربت على مثل الدوكات) والدوكات وصفاً إجماليا فقال إنها "مشخصة – أى منقوش عليها رسوم أشخاص – فعلى أحد وجهيها صورة الملك الذى ضربت هذه العملة فى عهده، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح إلى روما". انظر: فايز نجيب إسكندر: بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى – البحث الرابع: "القاهرة زمن المماليك الجراكسة فى عينى الرحالة جوس فان غستل (١٤٨٢-١٤٨٣م) دراسة مقارنة بمصادر الرحالة الأوربيين المعاصرين" القاهرة ٢٠١٠ – جـ٥، ص١٣٥، حاشية ٣٦. انظر أيضا: Van Gennep. A., Le Ducat Vénitien en Égypte, IN R. N., t. I, 1897, pp. 499-501.، هذا وقد سجل كل من فيلكس فابرى (١٤٨٣م) Felix Fabri ورفيقه برنار دو بريدنبخ (١٤٨٣م) فى مصدريهما أن الدوكة الواحدة تساوى خمسة وعشرين درهما فضيا؛ إذ جاء فى مصدريهما: "25 Madines font un Ducat"، انظر: Fabri, Voyage en Egypte, Paris, 1975, t. II, p. 570; Bernard de Breydenbach, les Saintes Pérégrination (1483), le Caire, 1904, p. 64.

(١) E. Von Groote, p. 77; Dopp, p. 34; Letts, p. 101; Bleser, p. 71: Sennoune, p. 174.
وقد ورد فى الترجمة الإنجليزية التى أعدها مالكولم لتس ما يلى: "In addition each one had to pay two ducats for permits, but A Pilgrim had to pay five ducats. I passed for A Merchant, but, if they had known, I should have forfeited live and goods."

(٢) E. Von Grotte, p. 77; Dopp, p. 34; Letts, p. 101; Bleser, p. 79. والجدير بالذكر أن الر حالة الفرنسى جان ثونو – الذى زار مصر فى المحرم سنة ٩١٨هـ/مارس ١٥١٢م – أورد أن رجال الجمارك المصرية حين أقدموا على تفتيش الأمتعة والصناديق التى فى معية الرحالة المرافقين له حتى يتحصلوا الرسوم الجمركية الواجبة، أصدرت السلطان المصرية إليهم الأوامر بعدم تحصيلها؛ وبالتالى حظى الجميع بالإعفاء من دفعها. انظر: .Jean Thenaud, p. 22.

من المماليك من أصل ألماني، الأول: من مواليد مدينة بازل[١] Basel، وكان يدعى كونراد من بازل Conrad von Basel قبل أن يصبح مملوكاً: والثاني: مسقط رأسه دانزج[٢] Danzig وارتبط معهما بصداقة حميمة، وساعداه في جولاته في كافة ربوع القاهرة. وبفضلهما حظى بتصريح مكتوب من السلطان الناصر أبى السعادات محمد بن قايتباى (٩٠١-٩٠٤هـ/ ١٤٩٦- ١٤٩٨م) يخول له الطواف بكافة البلدان الخاضعة لسيادة سلطنة المماليك الجراكسة، ألا وهى: بلاد الشام ومصر وبلاد العرب والأراضى المقدسة – أى فلسطين – وحلب وأرمينية الصغرى وكافة البلدان الأخرى الخاضعة لسيادته. [٣]

- **محاولة السلطان معرفة الإمكانيات العسكرية للملك الفرنسى:**

وعندما علم السلطان أن أرنولد وافد من إحدى البلدان الأوروبية، أصدر أوامره إلى المملوكين الألمانيين باستدعائه للمثول بين يديه بدار السلطنة بالقلعة، لكون أرنولد من الموهوبين فى الرسم، فانتهز تلك المقابلة ليرسم السلطان الشاب

---

(١) "بازل" Basel (فى النسخة الألمانية، انظر: E. Von Grotte, p. 86. وكذا فى الإنجليزية، انظر: Letts, p. 102) وبال Bâle فى النسختين الفرنستين. انظر: Dopp, p. 35; Bleser, p. 80. وهى حاليا مقاطعة سويسرية تشتهر بصناعة الأدوية، وتقع غرب برن Berne وشرق أرجوفيه Argovie وجنوب سولور Soleure وشمال دوقية باد Bâde الكبرى. للتفاصيل انظر: Bouillet, p. 166.

(٢) بدلا من ذكر اسم المدينة ا لتى ولد فيها، كتب كل من دوب ولتس أنه ولد فى الدانمرك (انظر: Le Caire, p. 35.). أما هـ. فون جروت Groote فقد ذكر أنه ولد فى دانزيجرس Danzigers (انظر p. 86.) فى حين أورد بليزيه أنه ولد فى دانزج Danzig من الدانمرك؟ Du Danemark? أى أنه غير متأكد أنها فى الدانمرك. (انظر: Bleser, p. 80). وبالفعل لم نجد دانزج فى الدانمرك (انظر: Bouillet, p. 495) ودانزج مدينة وميناء فى بروسا Prusse، وتقع على الضفة اليسرى لنهر الفستول Vistule بالقرب من مصبه، وتبعد عن برلين بـ ٣٨٠كم. للتفاصيل انظر: Bouillet, p. 498. وعن بروسا انظر: فايز نجيب اسكندر: القاهرة زمن المماليك الجراكسة فى عينى الرحالة جوس فان غستل، البحث الرابع فى كتابى بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى، ص١٤٧، حاشية ٨٠.

(٣) E. Von Groote, p. 86; Letts, p. 103; Dopp, p. 35; Bleser, p. 81.

يعرف عقوبة هذا التدليس، إذ أورد أنه إذا اكتشف أمره، لفقد حياته وأمواله. [١] ويعد هذا تصرفا يتنافى مع الأخلاق الحميدة التى ينبغى أن يتحلى بها هذا الفارس والحاج النبيل. إضافة إلى ما تقدم، كان على الرحالة دفع ١٠% من قيمة ما جلبوه معهم من بضائع؛ إذ بمجرد إنزالهم على الشاطئ، كان عليهم المرور بمكتب التفتيش الجمركى المقام على رصيف الميناء، والمكلف بتحصيل الرسوم سالفة الذكر بعد تفتيش كافة حقائبهم. [٢]

= بينما يكتفون بعدد الدوكات. وكان روجر الثانى Roger II حاكم أبوليا Apaulie أول من ضرب الدوكات. وفى ١٢٨٤م، ضرب دودج البندقية جان داندولو الدوكات البندقية. ولقد وصف القلقشندى الدنانير الأفرنتية (وهى عملات ذهبية ضربت على مثل الدوكات) والدوكات وصفاً إجماليا فقال إنها "مشخصة – أى منقوش عليها رسوم أشخاص – فعلى أحد وجهيها صورة الملك الذى ضربت هذه العملة فى عهده، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح إلى روما". انظر: فايز نجيب إسكندر: بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى – البحث الرابع: "القاهرة زمن المماليك الجراكسة فى عينى الرحالة جوس فان غستل (١٤٨٢-١٤٨٣م) دراسة مقارنة بمصادر الرحالة الأوربيين المعاصرين" القاهرة ٢٠١٠ – جـ٥، ص١٣٥، حاشية ٣٦. انظر أيضا: Van Gennep. A., Le Ducat Vénitien en Égypte, IN R. N., t. I, 1897, pp. 499-501. هذا وقد سجل كل من فيلكس فابرى Felix Fabri (١٤٨٣م) ورفيقه برنار دو بريدنبخ (١٤٨٣م) فى مصدريهما أن الدوكة الواحدة تساوى خمسة وعشرين درهما فضيا؛ إذ جاء فى مصدريهما: "25 Madines font un Ducat"، انظر: Fabri, Voyage en Egypte, Paris, 1975, t. II, p. 570; Bernard de Breydenbach, les Saintes Pérégrination (1483), le Caire, 1904, p. 64.

(١) E. Von Groote, p. 77; Dopp, p. 34; Letts, p. 101; Bleser, p. 71: Sennoune, p. 174. وقد ورد فى الترجمة الإنجليزية التى أعدها مالكولم لتس ما يلى: "In addition each one had to pay two ducats for permits, but A Pilgrim had to pay five ducats. I passed for A Merchant, but, if they had known, I should have forfeited live and goods."

(٢) E. Von Grotte, p. 77; Dopp, p. 34; Letts, p. 101; Bleser, p. 79. والجدير بالذكر أن الرحالة الفرنسى جان ثونو – الذى زار مصر فى المحرم سنة ٩١٨هـ/مارس ١٥١٢م – أورد أن رجال الجمارك المصرية حين أقدموا على تفتيش الأمتعة والصناديق التى فى معية الرحالة المرافقين له حتى يتحصلوا الرسوم الجمركية الواجبة، أصدرت السلطان المصرية إليهم الأوامر بعدم تحصيلها؛ وبالتالى حظى الجميع بالإعفاء من دفعها. انظر: Jean Thenaud, p. 22.

وبمجرد نزول الرحالة فى منزل التاجر الفلمنكى سالف الذكر، علم بذلك كبير التراجمة. وبما أن الرحالة كان عليهم المثول أمامه بناء على استدعاء منه، فقد طلبوا ذلك من مضيفهم التاجر الفلمنكى، فنفذ مطلبهم عن طيب خـاطر.[١] وهكذا أفلتوا من الإسكان اللإنسانى المعد لهم من قبل كبير التراجمة، الذى يبدو أنه خشى من التقارب الوثيق القائم بين تاجر الذهب والبللور والسلطان، فلم يقو على إكراههم على الإقامة فى داره.

- **لمحة عابرة عن القاهرة لأرنولد:**

وقد انتقل أرنولد بعد ذلك إلى وصف مدينة القاهرة؛ فقال إنها مدينــة كبيرة جدا[٢]، مكتظة بالسكان، غير محاطة بأسوار[٣]، وتقع على الجانب الأيسر لنهر النيل[٤]. ولها ثلاثة أسماء، أولها: بابليون[٥] Babylone؛ وثانيهـا: ثـايير Thayr – ويقصد بذلك القاهرة – وكانت محاطة بسور فيما مضـى، ولازالـت

(١) Bauwens-Préaux, p. 17; Dopp, Josse de Ghistele, p. 7-8.

(٢) بناء على روايات مؤكدة أورد برنار دو بريدنبخ – المرافق للرحالة فيلكس فابرى – أن عرض مدينة القاهرة ١٢١٧٢ قدما وطولها ١٥١٠٧ قدماء كـان ذلـك أواخـر سـنة ١٤٨٣م. انظر: Les Saintes Pérégrinations, P. 55; (والقدم وحدة قياس تسـاوى ٣٣ سنتم) وتتطابق نفس الأرقام مع فابرى. انظر: Fabri, t. II, pp. 526-527.

(٣) فى جان ثونو ورد فى مصدره أيضا المكتوب بالفرنسية القديمة أن القاهرة "غير محاطة بأسوار" Desgarnie de Murailles (انظر: Thenaud, p. 30)؛ أما جوس فان غستل فقـد أورد أنها كانت من قبل محاطة بأسوار وأبواب. والجدير بالـذكر أن صـلاح الـدين الأيوبى كان قد شيد تلك الأسوار سنة ١١٨٠م. ولازال إلى يومنا هذا باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة. انظر: Bauwens-Paéaux, p. 17, n.29. أما فيلكس فـابرى Felix Fabri الذى استمرت رحلته فى مصر من ٢ سبتمبر إلى ٥ نوفمبر ١٤٨٣، فقد أورد أن بعض أجزاء المدينة يحيط بها أسوار شاهقة مشيدة بطوب شَذِبَ بإتقان. انظر: Fabri, t. II, p. 529.

(٤) E. Von Groote, p. 86; Letts, p. 102; Dopp, p. 35; Bleser, p. 80.

(٥) فى E. Von Grotte, p. 86. سجل هذه الأسماء هكذا Babylon, Thayr, Maschera وهـذا خلال التحقيقات الأخرى.

آثار هذا السور بادية للعيان فى بعض المواضع؛ وثالث تلك الأسـماء ماشـيرا Maschera وهو تحريف لكلمة مصر.[١]

- **الدراسة التحليلية النقدية المقارنة:**

هكذا يؤخذ على أرنولد الاكتفاء بالقول إن القاهرة مدينة كبيـرة، بينمـا غيره من الرحالة الأوربيين كان أكثر دقة وأدق تعبيرا فيما يتعلق بكبر وعظمة العاصمة المصرية. **فجوس فان غستل** (١٤٨٢– ١٤٨٣م) سـجل أن وسـط القاهرة يبلغ اتساعه حوالى نصف ميل، بينما كل طرف من أطرافهـا ضـعف ذلك. ويؤكد أنها أكبر مدينة فى العالم الذى نعرفه آنذاك[٢]. وكانت المقر المعتاد لسلاطين المماليك وعاصمة لهم.

وبمقارنة ما أورده جوس فان غستل عن عظمة وكبر مساحة القاهرة بما ذكره غيره من الرحالة الأوربيين، نلاحظ جنوحهم إلـى المبالغـة. فقـد أورد الرحالة فيلكس فابرى Félix Fabri الراهب الدومنيكانى الألمانى الذى زار مصر سنة ١٤٨٣م أن مساحة القاهرة تساوى مساحة باريس Paris العاصمة الفرنسية سبع مرات ... وثلاث مرات أكبر من كولونى Cologne، علما بـأن كولونيـا أكبر من أولم Ulm ثلاث أو أربع مرات[٣] وفى حديثه عـن "مسـاحة وأحيـاء القاهرة" أورد فايرى "أن هذه المدينة فى أيامنا هذه مساوية لروما فى مسـاحتها"

(١) E. Von Groote, p. 86; Letts, p. 102; Dopp, p. 35; Bleser, p. 80 هذا وقد أورد فيلكس فابرى ٢٩ إسما للعاصمة المصرية القاهرة. انظـر: Fabri, t. II, pp. 525, 748, 919. وقد جاء فـى النسـخة الألمانيـة: "Kairo soll auch die namen Babylon Thayr und Maschera." كما تقاربت رواية جان ثونو مع روايـة أرنولـد فـون هـارف انظـر: Thenaud, p, 46.

(٢) Bauwens - Préaux, p.16; Dopp, p.7.

(٣) انظر: Voyage en Egypte de Felix Frabi, le Caire, 1975, p. 526. إذ جاء فى هـذا المصدر المعاصر لجوس فان غستل – والذى يعد من أهم مصادر الرحالة الأوربيـين– الآتى: "....Il est dit que le Caire est sept fois plus grand que la ville de Paris ... on constate qu'elle est trois fois plus grande que Cologne, or Cologne est trois ou Quatre fois plus grande qu'Ulm."

وفى مقارنته مبالغة واضحة حين قال إن القاهرة أكبر من كولونيا ثلاث مرات، بينما كولونيا أكبر من أولم ثلاث أو أربع مرات. على أية حال، بعد ذلك بعشرة أسطر قال إن طول القاهرة لا يقل عن ثلاثة آلاف أليمانيك Alémaniques (أى ما يقرب من أربعة كيلومترات)، وعرضها ألف ونصف (أى ما يقرب من كيلو مترين)[1]. أما برنار دو بريدنبخ Bernard de Breydenbach رفيق فيلكس فابرى فقد أورد أنه من على تل "ألقينا بأنظارنا على هذه المدينة (أى على القاهرة) التى هى فى أيامنا هذه، تعد - بلا ريب - أكبر مدينة فى العالم. وقد قيل لنا بالتأكيد إن عرضها ١٢١٧٢ قدم وطولها ١٥١٠٧ قدم (علما بأن القدم ٣٣سم)[2]. هذا بينما أنقص من مساحتها جان ثونو Jehan Thenaud الذى زار مصر سنة ١٥١٢م وكتب عن رحلته بالفرنسية القديمة فقال إن "هذه المدينة (أى القاهرة) أكبر ثلاث مرات من باريس، وتعدادها السكانى خمس أضعافها"[3]. أما جان أيرتس الذى زار القاهرة سنة ١٤٨٢م، فقد اكتفى بالقول إن مدينة القاهرة أكبر من جند Gand ثلاث مرات[4].

وكان غستل بليغا حين قال إنه على سفح هذا الوادى المتعرج[5]، يوجد قصر السلطان[6]، وفى الجانب الآخر مجرى نهر النيل. بناء على ما تقدم، فإن

(١) انظر: Fabri, t. II. P. 526.

(٢) انظر: Les Saintes Perégrinations de Bernard de Breydenbach (1483), le Caire, 1904, p. 55.

(٣) إذ جاء فى هذا المصدر: "Ceste cite est trois foys aussy grande que Paris et Peuplée cinq fois plus." انظر: Le Voyage d'Outremer, Publié par CH. Schefer, Paris, 1864, p46.

(٤) إذ جاء فى مصدره: "La ville, trois fois plus grande que Gand." انظر: Dopp, Jean Aerts, p. 117.

(٥) يقصد هنا جبل المقطم. انظر: Bauwens – Préaux, p.18, n.30

(٦) جعل سلاطين المماليك مركز بلاطهم القلعة فى القاهرة، أو ما يعرف بقلعة الجبل، لوقوعها على جبل المقطم. وهى التى بدئ فى بنائها فى عهد صلاح الدين فى سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م عنها انظر: عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار - القاهرة ١٢٨٦هـ، ص٢٣؛ المقريزى: الخطط، ج٣، ص٣٣٠). وذكر الرحالة الألمانى برنار أن القلعة وأسوارها تغطى مساحة مساوية لمساحة مدينة أولم Ulm، أو نصف مساحة =

مدينة القاهرة محاطة من كافة جوانبها بالنيل، لكن النيل يحدها فقط عند طرفيها، مما يجعلها على شكل نظارة طبية: فوسط المدينة، يبتعد أكثر عن النهر، ويتسم بأنه ضيق مقارنة بالطرفين الأكثر اتساعاً. ثم بعد ذلك تزداد اقتراباً من النهر حتى تصبح أكثر اتساعاً من الوسط.[1] ويتصل أحد طرفى القاهرة بموضع آخر مأهول بالسكان يطلق عليه اسم "بابيلون"[2] Babylone. أما الطرف الآخر، فيمتد حتى يصل إلى مكان ثان به كثافة سكانية يسمى "بولاق"[3] Boulaka.

أما فيما يتعلق باكتظاظ مدينة القاهرة بالسكان، فقد أورد **جوس فان غستل** أنها تكاد تنفجر من كثرة قاطنيها، حتى إن المنزل الواحد يعيش فيه ثلاثة أو أربع أسر.[4] وفى موضع آخر من مصنفه، جنح أرنولد إلى المبالغة حين قال إن: "... فى القاهرة، يعج المنزل الواحد بعدد لا يصدق من السكان، إذ يقطن معا أحيانا اثنى عشرة أسرة".[5]

= مدينة نورمبرج Nuremberg. (انظر: Bernard de Breydenach, p. 55 . وكذلك Bauwens- Préaux, p. 18,n.31.). والملاحظ أن فيلكس فابرى تطابقت روايته فى شقها الأول مع رواية برنار، إلا أن شقها الثانى اختلف إذ أورد أن "مساحتها تقارب الجزء الأكبر من مساحة نورمبرج". انظر: Fabri, t. II, p.527.

(١) Bauwens - Préaux, p.18; Dopp, pp.7-8.

(٢) "بابيلون" Babylone هى "مصر القديمة" فى أيامنا هذه، وتقع جنوب القاهرة، حيث يوجد أروع الآثار الدينية التى سيتحدث عنها جوس فان غستل بالتفصيل فى الفصل الرابع عشر. انظر: Bauwens- Préaux, p. 18,n.32. وعنها قال أنسلم أدرن Anselme Adornes الفارس الفلمنكى الذى وصل إلى القاهرة فى ٨ أغسطس سنة ١٤٧٠م أن "بابيلون مدينة جميلة تقع على النيل، وهى بجانب القاهرة" إذ جاء فى مصدره: "Babilone est une tres belle ville située sur le Nil À côté du Caire." انظر: Dopp, Anselme Adornes, p. 107, 109, in Bulletin de la Société de Géographie D'Egypte, t. xxvi, le Caire, août 1953.

(٣) تقع "بولاق" شمال القاهرة، وكانت فى الأصل جزيرة، اتصلت فى القرن الخامس عشر الميلادى بالأرض الصلبة، واختفى بذلك أحد أفرع نهر النيل بعد أن التحمت تلك الجزيرة مع المدينة. انظر: Bauwens- Préaux, p. 18,n.33.

(٤) Bauwens-Préaux, p. 18; Dopp, Joose, p. 8.

(٥) E. Von Groote, p. 90; Letts, p. 112; Dopp, p. 43; Bleser, p. 90.

ويواصل جوس سرده قائلا إنه من الاستحالة على القاهرة أن تستوعب كل الراغبين فى الإقامة بها، لذا فالكثير من الناس يقطنون حول المدينة فى خيام وأكواخ وشقوق.[١] ولقد ظهرت تلك العشوائيات آنذاك نتيجة أزمة إسكان؛ بسبب قلة الإقبال على تشييد المنازل لكونها مكلفة، وبالتالى قلة المعروض منها مع ضعف إمكانيات هؤلاء التعساء من سكان العشوائيات نتيجة ارتفاع أسعار مساكن وسط القاهرة.

وقد انفرد جوس بذكر تلك العشوائيات وأزمة الإسكان الطاحنة التى كانت قبل انطلاقه فى رحلته إلى مصر سنة ١٤٨٢م، والتى لازالت إلى يومنا هذا. ولقد حرص على تسجيلها لكونها غريبة على عينيه ولا مكان لها فى بلاده بلجيكا. وتعد تسجيلات الرحالة تلك، إضافة جديدة لم يرد ذكرها فى المصادر التاريخية.

هذا ما أورده جوس بصدد الكثافة السكانية للقاهرة. أما الرحالة الألمانى **برنار دو بريدنبخ** الذى زار القاهرة فى نفس سنة زيارة جوس لها فقد أورد أن: "المدينة تعد أكثر المدن فى كثافتها السكانية". وقارنها بإيطاليا قائلا إن: "كثافة إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها لا تساوى الكثافة السكانية لمدينة القاهرة".[٢]

بينما اكتفى **الرحالة اليهودى الإيطالى المولد عوبديا** Obadiah الذى زار مصر سنة ١٤٨٨م بالقول: "لن أتحدث عن كبر مساحة القاهرة ولا عن كثافتها السكانية التى نستشفها من كثرة المتجولين فى شوارعها، لأن كثيرين سبقنى إلى ذلك، وكل ما سردوه عن تلك المدينة حقيقة لا مبالغة فيها."[٣]

(١) Bauwens-Préaux, p. 18; Dopp, Joose, p. 8.

(٢) جاء فى هذا المصدر: La Ville Est plus populeuse Qu'aucune autre et l'on croit que la population de toute l'Italie n'égale pas celle du Caire." انظر: Bernard DE Breydenbach, p.56.

(٣) انظر: Adler, E.N., Jewis Travellers, London, 1930, p.224.Dopp, Obadiah Jaré Da Bertinoro, p.24. وقد جاء فى الترجمة الإنجليزية: "I shall not speak of the Grandeur of Cairo and the multitude of men to be seen streaming there, for many before me have described them, and all that has been said of the town is true."

● **خط سير أرنولد من كولونيا إلى القاهرة:**

بدأ أرنولد رحلته بالانطلاق من كولونيا فى السابع من نوفمبر سنة ١٤٩٦م – كما سبق القول –، ووصل إلى العاصمة الإيطالية روما حوالى أواخر فبراير من العام التالى[١]، حيث استقبله البابا الكسندر السادس[٢] (١٤٩٢-١٥٠٣م) Alexandre VI. وفى الخامس من فبراير سنة ١٤٩٧م، أبحر إلى البندقية، ومنها استقل سفينة تجارية للإبحار إلى الإسكندرية، فرست فى جزيرة رودس حيث أمضى بها ثمانية أيام، فى انتظار اعتدال المناخ وهدوء العاصفة البحرية، وبعدها واصلت السفينة إبحارها إلى أن وصل أرنولد إلى الإسكندرية بعد ستة أيام بفضل رياح مواتية، فأمضى بها أياما قليلة؛ بعد ذلك امتطى ظهر حمار أوصله إلى مدينة رشيد ومنها توجه إلى القاهرة فى رحلة نيلية، مقابل رسم قدره دوقة واحدة.[٣]

هذا وقد وصف أرنولد فون هارف كيفية دخول السفينة إلى ميناء الإسكندرية،[٤] وانفرد بتسجيل ذلك دون غيره من الرحالة، إذ ذكر أنها مرت

(١) Bleser, p. 63. فى دوب "تواجد فى روما فى خريف سنة ١٤٩٧م". انظر: Dopp, p. 33.

(٢) اسمه "رودريج بورجيا" Roderic Borgia وذلك قبل اعتلائه السدة الرسولية سنة ١٤٩٢م. ولد سنة ١٤٣١م فى مدينة كزاتيفا الأسبانية، وعين كاردينالا سنة ١٤٥٦م. وكان له دور بالغ الأهمية فى الأحداث السياسية فى أوربا آنذاك؛ إذ شن حربا على الملك الفرنسى شارل الثامن، كما تحالف تحالفا وثيقا مع لويس الثانى عشر. للتفاصيل انظر: Bouillet, M. N. Dictionnaire Universel d'Histoire et de Géographie, Paris, 1871, p. 45.

(٣) للتفاصيل انظر: E. Von Groote, pp. 14-17; Dopp, p. 33; Letts, pp. 92-96; Bleser, pp. 64-66; 69-79; Oueded Sennoune, La Description d'Alexandrie À Travers les Récits des Voyageurs, Corpus des Textes, Paris Février 2006 p. 174.

(٤) زودنا الرحالة فيلكس فابرى Felix Fabri بتفاصيل دقيقة ومطولة عن مدينة الإسكندرية فاقت ما أورده أرنولد فون هارف وغيره من الرحالة، إذ تحدث عن موقعها الجغرافى (انظر: pp. 345, 717, 848, 849)؛ وإقدام الإسكندر الأكبر على تأسيسها (انظر: p. 716)؛ ومنارتها (pp. 719-721)؛ وأسوارها (pp. 655, 657, 660, 948, 953, 967)؛ وأبوابها الثلاثة وهى: باب رشيد (pp. 656, 949)، وباب الأجانب (pp. 656, 949)، وباب البحر (pp. 684, 956, 961). انظر أيضا: Emmanuel Piloti, l'Egypte au commencement du quinzième siècle, ed. P. – H. Dopp., Le Caire, 1950, pp. 36-38.

مخفضة الشراع أمام قلعة السلطان الأشرف قايتباى (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م) – التى كانت قد تم بناؤها فى ذلك الوقت احتراما لتلك القلعة – ؛ بعد ذلك تحدث عن كيفية تقديم حراس القلعة التحية لتلك السفينة الوافدة؛ إذ أورد أنهم أطلقوا طلقات من مدافعهم، تلى ذلك أن أجاب عليها بالمثل ربان السفينة التجارية الإيطالية التى يمتلكها البندقى اندريا لوريدانو[1] Andrea Louredano.

وقد أورد أرنولد أن كل مسافر – مقابل إعطائه ترخيصا بدخول البلاد – كان عليه، إذا كان تاجرا، أن يدفع دوقتين؛ بينما كان على الحجاج دفع خمس دوكات[2] Ducats. فادعى أنه ليس من الحجاج، ودفع دوكتين، والطريف أنه

(١) E. Von Groote, p. 76; Dopp, p. 33; Letts, p. 93; Bleser, p. 70; Sennoune, p. 174. والتزاما بالدقة والاستفادة من كافة تحقيقات مصنف أرنولد فون هارف، استعنا بخمسة ورد ذكر أسماء المحققين فى أول هذا الهامش. كان التحقيق الأول بالألمانية، أعده سنة ١٨٦٠م الدكتور هـ. فون جرووت Dr. E. Von Grotte؛ تلاه ترجمة إنجليزية أعدها مالكولم لتس Malcolm Letts سنة ١٩٤٦م؛ أما الترجمة الثالثة فهى بالفرنسية فكانت من إعداد ب. هـ. دوب P. H. Dopp الأستاذ المساعد بكلية الآداب جامعة القاهرة آنذاك ونشرت فى سبتمبر سنة ١٩٤٦م، واقتصرت على ما رآه أرنولد فى القاهرة فقط. وكان التحقيق الرابع، وهو أفضل التحقيقات على الإطلاق، فقد أعده بول بليزيه Paul Bléser ونشر سنة ١٩٩٠م؛ أما الترجمة الخامسة والأخيرة، فهى بالفرنسية أيضا أصدرها بليزيه فى فبراير ٢٠٠٦م. وقد اقتصرت على ما رآه أرنولد فى الإسكندرية. وقد استفدنا منها حين أشرنا فى لمحة سريعة حين تحدثنا عن وصول أرنولد إلى الإسكندرية.

(٢) فى مستهل القرن الخامس عشر الميلادى / القرن التاسع الهجرى كانت دوكة Ducat البندقية العملة الذهبية الأوربية الوحيدة الأكثر انتشارا واستعمالا فى ربوع سلطنة المماليك الجراكسة. وقد أدخلت تلك العملة فى القاهرة فى عهد السلطان برقوق (١٣٨٢-١٣٩٨م) وكان الرحالة الفلورنسى ليوناردو فرسكوبلدى Lionardo Frescobaldi أول من أشار إليها فى حديثه عن زيارة القاهرة سنة ١٣٨٤م، إذ أورد أن اليهود والمسيحيين كانوا يدفعون ضريبة رأس سنوية قدرها دوكة Docat واحدة. (انظر: Dopp, p. H., Lionardo Frescobaldi, IN: B. S. R. G., t. XXIII, Juin 1950, p. 135). ويرجع السبب الرئيسى لإقبال العديد من البلدان الإسلامية على استخدام دوكات البندقية هو وزنها الثابت (تزن ٣.٣٠ جراما ذهبا)، وعيارها المرتفع، إضافة إلى دقة سكها من حيث استدارة القطعة منها تماما؛ هذا بينما كانت الدنانير المملوكية مختلفة العيار والوزن والسمك والقطر، لذا كان التجار يضطرون عند التعامل بها إلى وزنها،=

فى لوحة فنية ناطقة بالغة الروعة وكان فى وضع الجالس على العرش، ودار بينهما نقاش بمساعدة المملوكين حول ملك فرنسا شارل الملقب بـ لاافابلو – أى البشوش[1] – (١٤٨٣-١٤٩٨م) Charles dit L'affable، وإذا كان سيده، وعن مدى قوة وقوات وأسلحة الملك الفرنسى، وإذا كان قد تمكن من غزو الكثير من البلدان خلال هذا العام. ثم ما هى مخططاته التوسعية المرتقبة.[2]

ويعقب الفارس الألمانى على النقاش سالف الذكر قائلا إنه فهم مقاصد السلطان، وإنه سمع أن كل بلدان ما وراء البحار قد انتابها القلق من الملك الفرنسى شارل Charles، لأنه فى الأعوام السابقة كان قد اجتاح نابولى Naples وأبوليا Apulie وكالابريا Calabre – حدث ذلك سنة ١٤٩٤م – وأنه عقد النية هذا العام – أى عام ١٤٩٧م – على إعداد حملة صليبية لاستعادة الأراضى المقدسة. لذا ساد الاضطراب والخوف ربوع البلاد؛ كما حرص أرنولد على تزويد السلطان بمعلومات كاذبة تحظى برضاه وبعيدة تماما عن الحقيقة والواقع. ويذكر أنه كان بحق لا يعلم شيئا عن نوايا ومشاريع الملك الفرنسى.[3]

نستخلص من اللقاء السابق أن السلطان محمد بن قايتباى حاول تجميع أكبر قدر من المعلومات المتعلقة بغريمه الملك الفرنسى، خاصة استعداداته العسكرية لتوقعه عزمه على إ عداد حملة صليبية لاستعادة الأراضى المقدسة أو اجتياح مصر، خاصة وأن مشاريع دعاة الحروب الصليبية كانت على أشدها

(١) شارل Charles الملقب بالبشوش dit l'Affable (١٤٨٣-١٤٩٨م) هو ابن لويس الحادى عشر Louis XI. ولد سنة ١٤٧٠م واعتلى العرش الفرنسى فى الثالثة عشر من عمره، واقتصرت ثقافته على قراءة ملاحم الفروسية، ولصغر سنه أصبحت آن دو فرانس Anne de France شقيقته وصية عليه. وفى سنة ١٤٩١م تزوج آن Anne وريثة بريتانى Bretagne، وبذلك ضم تلك المقاطعة الهامة إلى المملكة الفرنسية. واشتهر شارل بطموحه البالغ. للتفاصيل انظر: Encycolpédie de l'Histoire de France, Paris, Septembre 2005, pp. 114-115; Bouillet, p. 385.

(٢) E. Von Groote, p. 86; Letts, p. 103; Dopp, p. 35; Bleser, p. 81.

(٣) E. Von Groote, p. 86; Letts, p. 102-103; Dopp, p. 35-36; Bleser, p. 81.

آنذاك. وكان على حق فى هذا حتى يكون على أهبة الاستعداد لمواجهة أى عدوان صليبى جديد.

ويبدو أن السلطان الناصر أبى السعادات محمد بن قايتباى قد سلك مسلك والده فيما يتعلق بمحاولة معرفة الاستعدادات الحربية للغرب الأوروبى آنذاك.فقد سبق الرحالة **جوس فان غستل** الرحالة أرنولد وسجل أنه ومرافقيه من الرحالة قد قدموا إلى السلطان قايتباى الجواهر التى أوصوا بصناعتها فى البندقية خصيصا له، والتمسوا منه قبولها عرفانا بالجميل.وبعد ذلك طلبوا منه السماح له بالتنقل بهدوء وسلام فى أراضى السلطنة للزيارة والسياحة ليس إلا[1]. فوافق على مطلبهم، كما أمر بإعطاء الرحالة قارورة من بلسمه الخاص، إضافة إلى هدايا أخرى.

كما حرص قايتباى حرصا شديدا على أن يستعلم منهم عن أخبار بلادهم، وعن الأحداث الجارية وعلى وجه الخصوص سألهم عن ملكهم المتوفى شارل لو تيميرير (الجسور فى المراجع العربية) Charles le Teméraire، فأجاب الرحالة باختصار عن هذه الأسئلة[2]، مما يدل على خباثتهم وإدراكهم ما وراء هذه الأسئلة. نخلص مما تقدم أن السلطان الناصر أبى السعادات سار على خطى والده قايتباى كما أورد أرنولد.

• **التجسس على السلطان والسلطنة:**

على أية حال، لم يكن التجسس قاصرا على الجانب الإسلامى فقط، بل إن بعض الرحالة الأوربيين تجسسوا على سلطنة المماليك الجراكسة، فحاولوا معرفة حالة الطرق وكيفية الانتقال من مدينة إلى أخرى، وحرصوا على وجه الخصوص على عقد صداقة حميمة مع بعض كبار المماليك من بنى جنسهم، وتقديم هدايا ثمينة كرشى لاستخلاص الكثير من الأسرار العسكرية التى تفوه بها

(١) Bauwens-Péaux, pp. 24-25; Dopp, Josse de Ghistele, p. 11.

(٢) Bauwens-Péaux, pp. 25; Dopp, Josse de Ghistele, p. 11-12.

هؤلاء القادة. كما سجلوا الكثير عن أحوال مصر الاقتصادية آنذاك، وكذا أحوال السلطان وبلاطه، ونظم المماليك القتالية وتدريباتهم فى الطباق. ووصل الأمر مداه حين توطدت علاقة بعض هؤلاء الرحالة بالسلطان وحرمه، نتيجة هداياهم التى أسالت لعابهما، فمنحهم السلطان تصاريح بحرية التجوال فى كافة ربوع سلطنته..سجل ذلك جوس فان غستل وأرنولد فون هارف. أما الرحالة الألمانى **فلهلم فون بولدانال** (١٣٣٢-١٣٣٣م) Wilhelm Von Boldensele **وسيمون سيميونس** (١٣٢٣م) فقد ذكروا أنهما دفعا بقشيشا Bakchich – أى رشى – لحصول كل منهما على تصريح يسمح بحرية التنقل فى كافة ربوع سلطنة المماليك البحرية، وحظيا باحترام بالغ فى كافة الأماكن التى قاما بزيارتها على حد قول كل منهما.[1]

هذا وقد أورد **جوس فان غستل** أنه أثناء إقامة الرحالة فى القاهرة، حدث لهم ما يحدث عادة فى بلدان أجنبية أن يتعرفوا على أناس من نفس بلادهم أو من بلدان مجاورة لبلادهم. ففى القاهرة كان يقطنها أحد المماليك ويدعى نصر الدين من مواطنى دانتزج Dantzig فى بروسة Prusse. كان مسئولا عن بيت المال Trésorier، وكان قد تزوج بابنة الخازندار الكبير[2]، وهو المسئول عن نفقات السلطان، وهى وظيفة بالغة الأهمية. وبمجرد أن علم هذا المملوك أن بعض رحالة الأراضى الواطئة Néerlandais كانوا فى زيارة، رحبوا به وتعرفوا عليه، ودارت مناقشات مستفيضة معه أثناء إقامتهم فى القاهرة وضواحيها. وعلموا منه الكثير من الأشياء عن أحوال البلاد ومكانتها، وكذا سلطات السلطان وقدراته واستعداداته.[3]

(١) Boldensele, Itenererius Guilielmi de Boldensele, ed. Grotefend, 1852, p. 253; Symon Simeonis, Itineraria, ed. James Nasmith, 1917, pp. 61-62.

(٢) ذكر القلقشندى أن "الخازندارية" موضوعها "التحدث فى خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك. وكانت عادتها طبلخاناه، ثم استقرت تقدمة ألف". انظر: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢١.

(٣) Bauwens-Préaux, pp. 27-28; Dopp, p. 12.

كذلك أخبرهم هذا المملوك أن السلطان يحتفظ على الدوام فى هذه المدينة – أى فى القاهرة– بأكثر من عشرين ألف مملوك يتكفل بنفقاتهم إذ يتكفل برواتبهم (أى الجوامك)؛ إضافة إلى هؤلاء، يوجد أيضاً أعداد هائلة من المماليك ينتشرون فى مواضع عديدة من أراض سلطنته، وهؤلاء أيضاً يدفع لهم الجوامك[١]. ومن بين العشرين ألف مملوك، هناك عشرة آلاف يتغذون فى القلعة ويقيمون فيها ليلاً. ومن العشرة آلاف، هناك ما بين سبعة إلى ثمانية آلاف مملوك من البالغين أو الشباب وتبلغ أعمارهم ما بين ثمانية عشر عاماً، أو عشرة، أو تسعة، أو ثمانية أو سبعة أعوام كانوا قد تخلوا عن المسيحية واعتنقوا الإسلام ويطلق عليهم اسم الأجلاب[٢] Gelepij.

(١) "الجامكية" لفظة فارسية الأصل، جمعها "جوامك". وعنها قال القلقشندى نفقة مماليك السلطان عبارة عن جامكيات وعليق وكسوة وغير ذلك (انظر: صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٥٧) فهى هنا تعنى راتباً. هذا بينما يقول المقريزى فى الخطط: الرواتب والجامكية (انظر: الخطط المقريزية– القاهرة ١٣٢٦هـ– ج٤، ص ١٢٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة– دار الكتب المصرية ١٩٣٠–١٩٥٦م– ج٩، ص٧٣)، والجوامك فى المصطلح المملوكى والعثمانى تعنى مرتب الجنود. (انظر: ابن زنبل الرمال: آخرة المماليك أو وقعة السلطان الغورى مع سليم الثانى– تحقيق عبد المنعم عامر– القاهرة ١٩٩٨، ص ٨٦ حاشية ١). انظر أيضاً: فايز نجيب إسكندر: ابن إياس وتأريخه للفتح العثمانى لبلاد الشام– دراسة فى تطور منهجيته فى الكتابة التاريخية– البحث الثالث فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى–القاهرة ٢٠٠٧م– الجزء الرابع– ص١٧٦ حاشية ٦٧.) وقيمة الجامكية لم تكن ثابتة، إذ ارتبطت بكثرة التلاعب بالنقد وبأهواء السلاطين ورغباتهم. وقد قدم السلطان للمماليك فى كل يوم على شكل راتب اللحم والخبز وغير ذلك من المواد الغذائية الضرورية، بالإضافة إلى العليق لدوابهم. وقد استعيض أحياناً عن اللحم بالمال. للتفاصيل أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص ٥٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٧٣. انظر أيضاً: Aylon, D., The System of Payment in Mamluk Military Society, In Journal of Economic and Social History of Orient, Leiden, 1958. 1/1, p.55.

(٢) المماليك "الأجلاب" أو "الجلبان" أو "الأحداث" لحداثة سنهم هم "المماليك السلطانية" لأن السلطان القائم كان يجلبهم إلى مصر من الخارج. وانتسب هؤلاء المماليك غالباً إلى أستاذهم، أى سادتهم الذين اشتروهم من التجار، أو انتقلوا إليهم بطرق آخرى. وعنهم قال القلقشندى: "هم أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً، وأشدهم إلى السلطان قرباً، =



رسم رقم (١) محارب من المماليك متمنطق بسيفه

وهؤلاء المماليك الأجلاب يتم تثقيفهم وتعليمهم فى ثلاث مدارس شاسعة للغاية تسمى طباق Tabigoes. حيث يصنفون إلى مجموعات وفق قواعد معينة. ويتم تعليمهم على أيدى أساتذة متنوعين كثيرى العدد وذلك فى صالات درس مخصصة لذلك. ويتكفل الأساتذة بتعلمهم القراءة والكتابة واللغة العربية، إضافة إلى القرآن الكريم؛ كما يوجد أيضاً فى هذه المدارس عدد كبير من الأساتذة يتكفلون بتعليم هؤلاء الشباب كيفية استعمال السيف والخنجر، والسيف القصير، والترس والبلطة، والرمح، والقتال والضرب بالقوس. ويتعرضون آنذاك إلى شقاء بالغ قبل إنهاء هذا البرنامج التدريبى على فنون الحرب والقتال. ولكن، بعد أن

= وأوفرهم إقطاعاً؛ ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة، وهم فى العدة بحسب ما يؤثره السلطان من الكثرة والقلة." انظر: صبح الأعشي، ج٤، ص ١٥–١٦. وللتفاصيل انظر: المقريزى: الخطط، ج٣، ص٣٥٤. انظر أيضاً: السيد الباز العرينى: المماليك –بيروت ١٩٧٩– الفصل الثانى المخصص للحديث عن الجيش المملوكى– ص٥٣–٨٣؛ انطوان خليل ضومط: الدولة المملوكية –التاريخ السياسى والاقتصادى والعسكرى –بيروت ١٩٨٢– الفصل الأول وعنوانه السلطان والجند– ص ١٨–٥٩. وبالتالى، سوف لا نخصص حواشى تتعلق بالجيش المملوكى، فهى أمور لا جديد فيها.

يتعلموا كل ما تقدم، يتم ترقيتهم تدريجياً من المدارس الأولية إلى أخرى أكثر تقدماً؛ أما الذين أنهوا الدراسة فى المدارس العليا، فيتم تنصيبهم مماليك.



رسم رقم (٢) معدات فارس مملوكى

وفى المدرسة الأولية، يتم إلحاق الأولاد الجدد الوافدين من بلدان عديدة، وجلبوا إلى القاهرة لبيعهم وتم شرائهم، ويتم ذلك يومياً. وهكذا، فإن هذه المدارس تظل مليئة بالمماليك على الدوام[١].

أما فيما يتعلق بالألفين من المماليك الآخرين، فهم قادة ويعملون فى خدمة السلطان، ويقيمون على الدوام فى القصر السلطانى حيث ينامون ويأكلون ويشربون[٢].

---

(١) للتفاصيل عن الطباق وتعلم المملوك لفنون الحرب والقتال انظر: السيد الباز العرينى: المماليك، ص ٨٣-١٢٧؛ فايز نجيب إسكندر: فن الحرب والقتال لدى المسلمين والصليبيين فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى- بنها ١٩٩٩؛ محمود نديم أحمد فهيم: الفن الحربى فى العصر المملوكى البحرى- القاهرة ١٩٨٣- ص٢٥-٦٦، ١٣٥-١٩٣؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام- القاهرة ١٩٦٥؛ عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر- القاهرة ١٩٧٩- ج١، ص ١٣٨-١٨٨.

(٢) .Bauwens- Préaux, pp.30-32; Dopp.pp.12-14 كان "مماليك السلطان" يرأسهم "مقدمو المماليك السلطانية"؛ بينما الأمراء يرأسون مماليكهم. للتفاصيل انظر: القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٥-١٦؛ المقريزى: الخطط، ج٣، ص ٣٥٤.

وبالنسبة للعشرة آلاف الباقين من العشرين ألفا الذين تحدثنا عنهم فيما مضى، فهم من المماليك المرتزقة. يقيمون فى المدينة ويأتون يومياً إلى البلاط السلطانى سيراً على الأقدام أو يمتطون فرساً، وينقسمون إلى مجموعات وتتكون كل مجموعة من خمسين أو مائة مملوك، يترأسهم قادة وأمراء، أى هناك أمير مائة أو أمير خمسين. وهم دائماً على أهبة الاستعداد للقتال تنفيذا لأوامر السلطان أو من ينوب عنه.



رسم رقم (٣) فارس مملوكى ممسكا برمحه بيده اليمنى

كما أخبرهم المترجم نصر الدين بأن السلطان تحت إمرته العديد من كبار الأمراء فى مواضع مختلفة، وكل أمير تحت إمرته جنده من المماليك، وهؤلاء يتكفلون بحماية البلاد والحدود. من بين هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر أمراء دمشق وطرابلس وبعلبك وعمان وحمص وأزمير smyrne وحلب والبيرة وأنطاكية وكرمان Carran وصفد Sophet وطبرية وعكا وبيت المقدس والرملة Rama وغزة وقاطيه Cattia وبلبيس Burbays ودمياط والإسكندرية والطور Altor وجدة Zigdene والقصير Acasser ومواضع أخرى عديدة يطول ذكرها[١].

---

(١) .Bauwens- Préaux, p.32; Dopp.p.14 "وأجناد الحلقة" نخبة من الجند من محترفى الجندية ظهرت تسميتهم فى عهد صلاح الدين، وسموا أيضاً "أولاد الناس" والحلقة هى السلاح. ومعظم جند الحلقة كانوا من أصحاب حرف وصناعات. ولا تتغير هذه الطبقة بتغير=

هكذا جمع جوس فان غستل معلومات بالغة الخطورة عن مدى الإمكانيات العسكرية الدقيقة لسلطنة المماليك الجراكسة؛ حتى يحسب حسابها حين يفكر الغرب الأوروبى فى الإعداد لحملة صليبية لاستعادة الأراضى المقدسة أو للإغارة على مصر "رأس الأفعى" والقوة العظمى فى المشرق الإسلامى آنذاك. مما يؤكد أن من بين دوافع بعض هؤلاء الرحالة الأوربيين من زيارة سلطة المماليك كان التجسس.

• لمحة عن الاضطرابات السياسية فى عهد محمد بن قايتباى:

وبعد أن سجل أرنولد ما دار فى أول لقاء جمعه بالسلطان محمد بن قايتباى، سرد فى لمحة سريعة أحوال سلطنة المماليك السياسية المضطربة آنذاك. فاستهل ذلك بالحديث عن كيفية وصوله إلى عرش السلطنة قائلا إنه ابن السلطان الراحل قايتباى[١] الذى توفى منذ عامين[٢]، وكان ابنه محمد آنذاك فى

= السلاطين، بل تبقى كأساس دائم للجيش فى مصر. كما كانوا يقسمون إلى أقسام ويسجلون فى ديوان الجيش، ولهم حق فى الإقطاعات. للتفاصيل انظر: أبو شامة الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية- القاهرة ١٢٨٧هـ، ج٢، ص ١٧٩، ٢١٧؛ ابن إياس: ج٣، ص ١٨؛ المقريزى: الخطط، ج٣، ص ٣٥٥؛ القلقشندى: ج٣، ص ٤٥٨.

(١) هو "الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباى" تولى السلطنة فى ليلة الاثنين ٦ رجب سنة ٨٧٢هـ/ ٢ فبراير سنة ١٤٦٨م وكانت السلطنة فى أشد حالات الفوضى والارتباك (ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٣، ص٤). اتصف قايتباى بالجرأة والجشاعة، فإنه حين علم بما يعانيه المسلمون من اضطهاد فى الأندلس، أرسل إلى ملكها يهدده بهدم كنائس الشرق. وقد أفرد ابن إياس المجلد الثالث من كتابه "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" لعصر ذلك السلطان وابنه محمد، وأنهى عهد قايتباى بذكر محاسنه ومساوئه، وختم ذلك قائلا: "ومن محاسن الأشرف قايتباى أنه كان فى شدة غضبه يستحيل راضيا، ويزول ما كان عنده من الحدة، وهذه من أجل الخصائل. وفى الجملة كانت محاسنه أكثر من مساوئه، وكان خيار الترك بالنسبة لمن جاء من بعده من السلاطين. ولولا كان عنده بعض طمع، لكان أجل ملوك الجراكسة، وكان من خيارهم". انظر: ابن إياس: جـ ٣، ص٣٢٥-٣٢٦.

(٢) فى ٢٧ ذى القعدة سنة ٩٠١هـ بعد العصر، توفى قايتباى بالقلعة وبات بها، وشيعت جنازته فى اليوم التالى. توفى وله من العمر نحوا من ٨٤ سنة. (انظر: ابن إياس، =

الرابعة عشر من عمره[١]. كما سجل أن قايتباى[٢] كان محبوباً من بلاطه ومماليكه وشعبه، وأنه أمر قبيل وفاته بأن يعتلى ابنه محمد عرش السلطنة من بعده. وهذا ما حدث بالفعل. فبوفاة قايتباى، اعتلى ابنه عرش السلطنة وأقام فى القلعة[٣]، المقر المخصص لإقامة السلاطين [٤]. كان ذلك يوم السبت ٢٦ من ذى القعدة سنة ٩٠١م/ ٧ أغسطس ١٤٩٦م، واغتيل فى منتصف شهر صفر سنة ٩٠٤هـ/ ٣١ أكتوبر سنة ١٤٩٨م. [٥]

=جـ٣، ص٣٢٤؛ ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، جـ٨، ص٢٢.) وقبل يوم من وفاته أجمع الأمراء على تنصيب ابنه محمد خلفا له. انظر: ابن طولون: مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان – تحقيق محمد مصطفى – القاهرة ١٩٦٢ – القسم الأول، ص١٦٧؛ ابن إياس جـ٣، ص٣٢٦.

(١) E. Von Groote, p. 87; Letts, p. 103, Dopp, p. 36; Bleser, pp. 81-82.

(٢) الجدير بالذكر أن التاجر اليهودى الثرى المولود فى فولترا Volterra فى تسكانيا والذى زار مصر سنة ١٤٨١م ذكر فى مصدره أنه: "فى يوم الجمعة ٢٢ يونيو ١٤٨١م، رأيت السلطان (قايتباى) وجهاً لوجه، وهو شيخ فى الرابعة والثمانين لكن قوى البنيان، جميل المظهر، منتصب القامة كعواد البان. ملابسه بيضاء، وكان يمتطى جواداً ويصحبته أكثر من ألفى جندى من المماليك". إذ جاء فى النسخة الإنجليزية: "On Friday, the 22nd June 1481, I saw The Sultan face to face. He is an old man of 80, but straight as a reed, tall, and good looking, clothed in a white garment. He was riding, and more than two thousand Mameluke soldiers with him." انظر: Adler, jewish travellers, p.170; Dopp, Meshullan Ben Menahem, p.115.

(٣) جعل سلاطين المماليك مركز بلاطهم القلعة فى القاهرة، أو ما يعرف بقلعة الجبل، لوقوعها على جبل المقطم. وهى التى بدئ فى بنائها فى عهد صلاح الدين فى سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م عنها انظر: عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار – القاهرة ١٢٨٦هـ، ص٢٣؛ المقريزى: الخطط، ج٣، ص٣٣٠). وذكر الرحالة الألمانى برنار أن القلعة وأسوارها تغطى مساحة مساوية لمساحة مدينة أولم Ulm، أو نصف مساحة مدينة نورمبرج Nuremberg. (انظر: Bernard de Breydenach, p. 55. وكذلك Bauwens- Préaux, p. 18,n.31.). والملاحظ أن فيلكس فابرى تطابقت روايته فى شقها الأول مع رواية برنار، إلا أن شقها الثانى اختلف إذ أورد أن "مساحتها تقارب الجزء الأكبر من مساحة نورمبرج". انظر: Fabri, t. II, p.527.

(٤) E. Von Groote, p. 87; Letts, p. 103-104; Dopp, p. 36; Bleser, p. 81-82.

(٥) للتفاصيل انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٣، ص٤٠١-٤٠٣. انظر أيضا: Dopp, p. 36, n. 1.

وتحدث أرنولد بعد ذلك باقتضاب عن الاضطرابات التي تعرضت لها سلطنة المماليك الجراكسة فى عهد السلطان محمد بن قايتباى فقال إن أحد كبار المماليك ويدعى قانصوه خمسمائة والذى حظى بمناصرة أكثر من ثلاثة آلاف من مشايعيه من المماليك، نصب نفسه سلطاناً، وتلقب بالأشرف أبى النصر، على لقب أستاذه الأشرف قايتباى. وفرض حصارا دام ثلاثة أيام حول مقر إقامة السلطان فى القلعة[1]. فما كان من هذا الأخير أن وزع أموالا طائلة كان قد ورثها عن أبيه قايتباى، وبفضلها عبأ جيشا من المماليك الأشرفية تسلل فى الخفاء داخل القلعة ليلا وذلك فى اليوم الثالث من الحصار. وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى، باغت هؤلاء، مناصرى قانصوه خمسمائة، وقتلوا عددا كبيرا منهم؛ فما كان من قانصوه خمسمائة أن لاذ بالفرار نحو مدينة غزة[2] Gaza، وأثناء انسحابه قام بقتل كل من صادفه من مشايعى السلطان الشاب، وأمضى الليلة الأولى من انسحابه فى قرية المطرية الواقعة بالقرب من القاهرة، تلك القرية التى تشتهر بأشجار البلسم التى تكثر فى حديقة يمتلكها السلطان محمد بن قايتباى، فقام جنود القائد المهزوم باقتلاع تلك الأشجار، وكسر السواقى المستخدمة فى ريها، وسرقوا الثيران التى تديرها. وأكد أرنولد أنهم أخبروه بذلك، كما شاهده بأم عينيه. ويختتم حديثه عن أحداث النهب والتخريب بالقول إنه منذئذ ولمدة عشر سنوات لن تثمر هذه الحديقة بلسما.[3]

(١) ابن إياس: جـ٣، ص٣٤٢. كان ذلك فى فبراير سنة ١٤٩٧م/ جمادى الآخرة سنة ٩٠٢هـ. انظر: Letts, p. 104; Dopp, p. 36, n. 2; Bleser, p. 82, n. 34.

(٢) "غزة" Gaza (فى Dopp, pp. 36-37.) وغزيرة Gazera (فى Letts, pp. 104-105, E. Von Grotte, pp. 87-88; Bleser, pp. 82-83) والغريب أن مالكولم لتس فى صفحة ١٠٤ حاشية ١ ذكر أن قانصوه خمسمائة أكره على الفرار نحو غزة Gaza، ولم يصحح اسم المدينة فى متن صفحتى ١٠٤ و١٠٥. وللتفاصيل عن هذه الأحداث انظر: ابن إياس: جـ٣، ص ٣٤٣-٣٤٦.

(٣) E. Von Groote, p. 87-88; Letts, p.104-105; Dopp, p. 36-37; Bleser, p. 82-83.

ويواصل سرده قائلا إنه فى اليوم التالى، انسحب قانصوه خمسمائة وسار فى اتجاه غزة. وبينما كان يجتاز الصحراء التقى بأحد كبار أمراء المماليك المعزولين ويدعى آقبردى الدوادار[1] الكبير الذى ظهر على مسرح الأحداث "بعد اختفائه من حين وفاة السلطان قايتباى"[2]، ويذكر ابن طولون أن السلطان محمد بن قايتباى "بعث له الأمان، فاجتمع عليه مماليكه وجماعته وغيرهم من العصاة، وبقى له شوكة"[3]. أما أرنولد فقد اكتفى بالقول إن آقبردى ترأس جيشا عظيما، وعقد النية على الزحف فى اتجاه القاهرة حتى ينصب نفسه سلطانا. وعلم آنذاك أن قانصوه خمسمائة كان قد سبقه فى الوصول إلى عرش السلطنة ولكنه فشل فى تحقيق مسعاه.[4]

والجدير بالتسجيل أن ابن طولون زودنا برواية مختلفة مفادها أنه "شاع بدمشق أن قانصوه خمسمائة تسلطن ستة أيام بباب السلسلة، ولقب بالملك الأشرف، ثم طرد بعد أن أصابته بندقة، وأن الدوادار آقبردى رجع من البلاد الشمالية ووصل إلى غزة".[5]

ويذكر أرنولد أن الغريمين التقيا وجها لوجه فى البرية الموحشة، وانتهت بتمكين الدوادار آقبردى من قتل قانصوه خمسمائة، وخمسين من كبار

(١) تودار Thodar (فى E. Von Groote, p. 88; Letts, p. 105-106; Bleser, p. 83.) وقد صحح دوب هذا الخطأ الوارد فى الترجمات السابقة وكتبه "دوادار" Diudar. (انظر: Dopp, p. 37) و"الدوادار" اسم مركب من لفظين: أحدهما الدواء، والثانى دار، ومعناه ممسك: فيكون المعنى "ممسك الدواة" ومهمته إبلاغ الرسائل عن السلطان وتقديم القصص والشكاوى إليه. انظر: القلقشندى، جـ٥، ص٤٣٤؛ المقريزى: الخطط، جـ٣، ص٣٦١. انظر أيضا: فايز نجيب إسكندر: الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة الروم- الإسكندرية ١٩٩٩- ص٢٠، حاشية ٤.

(٢) ابن طولون: مفاكهة الخلان، القسم الأول، ص١٧١.

(٣) مفاكهة الخلان، القسم الأول، ص١٧١. انظر أيضا: E. Von Groote, p. 88; Letts, p.105; Dopp, p. 37; Bleser, p. 83.

(٤) E. Von Groote, p. 88; Letts, p.105; Dopp, p. 37; Bleser, p. 83.

(٥) مفاكهة الخلان، ق١، ص١٧٢؛ ابن إياس: جـ٣، ص٣٣٦.

الأمراء المماليك المناصرين له وكذا الكثير من حاشيته. عقب ذلك زحف آقبردى فى اتجاه القاهرة، وحاصر القلعة مقر إقامة السلطان محمد بن قايتباى هادفا من ذلك تنصيب نفسه سلطانا. (١)

● **الدراسة التحليلية النقدية المقارنة :**

هذا وقد اختلفت رواية **ابن طولون** قليلا عن رواية أرنولد إذ أورد أن قانصوه خمسمائة باغت آقبردى بأرض الزعقاء، ثم حاصره بخان يونس، وقتل من الفريقين أعداد كبيرة. وانتهت المعركة بانكسار قانصوه خمسمائة وقيل إنه قتل. بينما سار آقبردى إلى مصر منصورا. (٢)

ومن الطبيعى أن يزودنا المؤرخ المعاصر **ابن إياس** تحت أحداث سنة ٩٠٢هـ برواية أكثر تفصيلا، لكونه عاصر أحداثها. أهم ما جاء فيها من جديد، سرده ما حدث من هجوم المماليك على من كان من أنصار آقبردى بمدرسة السلطان حسن، "فأحرقوا بابها ودخلوا على من بالمدرسة من الأمراء، فهربوا ونهب الجلبان ما كان بالمدرسة من طشتخانات الأمراء والمماليك، ونهبوا بسط المدرسة والقناديل، وخلعوا شبابيك القبة التى بالمدرسة وأخذوا رخامها". (٣)

ويعلق ابن إياس على تلك الأحداث بالقول: "لم يقع بمصر من يوم فتحها وهلم جرا مثل واقعة آقبردى الدوادار، فكانت من غرائب الوقائع" وكان بليغا حين علق على انعكاسات تلك الاضطرابات والتقلبات السياسية على حياة قاطنى القاهرة – وهذا هو أهم ما فى روايته – قائلا إنه: "فى مدة المحاصرة، كانت الأسواق معطلة، والدكاكين مقفلة، وامتنع البيع والشراء. ولم تظهر فى تلك الأيام إمرأة فى الأسواق ولا بالطرقات، وكثر القتل والنهب". وكان بليغا حين ختم سرده بالقول: "كانت القاهرة مائجة والناس فى أمر مريب". (٤)

---

(١) E. Von Groote, p. 88-89; Letts, p.105; Dopp, p. 37; Bleser, p. 83.
(٢) مفاكهة الخلان، ق١، ص١٧٢؛ ابن إياس: جـ٣، ص٣٥٠-٣٥١.
(٣) ابن إياس: جـ٣، ص٣٧٠-٣٧١.
(٤) ابن إياس: جـ٣، ص٣٧٢.

ولم يقض على هذه الفتنة هروب آقبردى من القاهرة نهائيا، بل استمر المماليك الجلبان فى النهب "وعطعطوا فى المدينة [أى فى القاهرة]، وصاروا يدخلون الحارات وينهبون البيوت حتى نهبوا الربوع التى هى سكن العوام. ثم توجهوا إلى حارة زويلة ونهبوا كل ما فيها... واستمر النهب والقتل عمالا ثلاثة أيام متوالية، ولم يجدوا من يردهم عن ذلك، والمدينة هائجة، وكل من ظفروا به من جماعة آقبردى يقتلونه شر قتلة. (١)

على أية حال، بعد أن سجل أرنولد مقتل قانصوه خمسمائة، تتبع سرد محاولة آقبردى خلع الشاب محمد بن قايتباى إذ أورد أنه بعد نجاحه فى فرض حصار على مقر إقامة السلطان لمدة ثلاثة أيام، نجح عدد كبير من جنود محمد بن قايتباى فى التسلل خلسة وفى سرية تامة إلى القلعة المحاصرة. وفى ساعة مبكرة من الصباح، أقدمت كتيبة من خيرة المقاتلين على إطلاق صيحات مدوية، وانقضت بغتة على مقاتلى الدوادار، فأتت على عدد كبير منهم؛ مما اضطر آقبردى إلى الانسحاب مجددا إلى غزة ليعيد تنظيم صفوفه. وبالفعل بعد مضى شهر تقريبا، عبأ جيشا بلغ أكثر من عشرين ألف مقاتل وتقدم ثانية صوب القاهرة. وحاصر ثانية القلعة خلال ثلاثة أسابيع، ولم يكف آنذاك من الإغارة اليومية فى محاولات مستميتة لاقتحام المقر السلطانى. (٢) إلا أن السلطان تغلب عليه وأكرهه على الفرار من ساعة الوغى؛ فما كان من مماليك السلطان الشاب أن أقاموا مذبحة أتت على كافة مناصرى الدوادار. ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا بنهب كافة منازلهم. (٣)

ويؤكد أرنولد أنه كان شاهد عيان لتلك الأحداث الدموية حين قال إنه بمجرد أن لاذ الدوادار آقبردى بالفرار، أقدم مماليك السلطان الشاب على إقامة مذبحة للمنخرطين فى صفوفه. ولم يكتفوا بذلك، بل نهبوا ونبشوا على كافة

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٣، ص٣٧٥.
(٢) E. Von Groote, p. 89; Letts, p.105; Dopp, p. 37; Bleser, p. 83.
(٣) E. Von Groote, p. 89; Letts, pp.105-106; Dopp, p. 37; Bleser, p. 83.

منازلهم. وكان من بين ضحاياهم كبير التراجمة والذى كان أنولد يقيم فى إحدى غرف منزله؛ ويرجع سبب ذلك أنه كان من مشايعى الدوادار. لذا، كسروا بقوة مغاليق منزله، وصادروا واستولوا على كافة محتوياته. ورأى الدوادار بأم عينيه الدمار الكامل الذى لحق بمنزله؛ وكان من بين ما لحق به الخراب، غرفة أرنولد والتى كان يختبأ بها، فنهبوا كافة أمتعته ومقتنياته، وألقوا القبض عليه، وفتشوا عن هويته، وضربوه ضرباً مبرحاً. واستطاع بمشقة بالغة أن يوقف تلك التجاوزات والإهانات ويطلق سراحه بعد مضى ثلاثة أيام، بعد أن أبرز التصاريح التى حصل عليها من السلطان محمد بن قايتباى. [١]

وتصور هذه الحادثة، جانبا من الاضطرابات السياسية، والاقتتال للوصول إلى عرش السلطنة بين كبار أمراء المماليك والتى شاعت فى القاهرة فى أواخر عهد سلاطين المماليك الجراكسة؛ حتى إن بعض سلاطين المماليك أدرك – بثاقب بصره وبصيرته – أن البقاء على قيد الحياة أفضل من تولى العرش، من بين هؤلاء: السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباى الذى تولى السلطنة فى ليلية الاثنين ٦ رجب سنة ٨٧٢هـ /٢ فبراير ١٤٦٨م، إذ ذكر المؤرخ المصرى المعاصر إبن إياس أنه "لما أرادوا أن يفيضوا عليه شعار الملك تمنع من ذلك وبكى، فألبسوه ذلك الشعار غصباً، وهو يمتنع غاية الامتناع". [٢]

• وصف أرنولد لمراسم البلاط والقصر السلطانى:

وينتقل أرنولد بعد ذلك للحديث عن القصر السلطانى، فيذكر أن المملوكين الألمانيين ذهبا معه إلى قصر السلطان لزيارته. وأن مساحة القصر تتعدى مساحة مدينة دورن Düren، الواقعة على بعد عشرين كم من إكس لا شابل Aix- La- Chapelle. [٣]

(١) E. Von Groote, p. 89; Letts, p.106; Dopp, pp. 37-38; Bleser, pp. 83-84.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٣، ص٤.

(٣) Bouillet, p. 573.

ويقع القصر على ربوة صخرية شاهقة الارتفاع. وللوصول إليه ينبغى اجتياز اثنى عشرة بوابة. وفى مدخل البوابة الأولى من قلعة الجبل، على اليمين، يوجد مبنى كبير يحوى صالات عديدة حيث يتلقى شباب المماليك دروساً فى القراءة والكتابة والتدرب على طريقة القتال بالرمح وكيفية استخدام الترس للدفاع عن النفس والرمى بالقوس وكافة أنواع الأسلحة الأخرى وذلك فى ثكنات عسكرية –والمقصود هنا التدريب على فنون القتال فى الطباق– وقد رأى بهذه المدرسة العسكرية – أى الطباق– خمسمائة مملوك من الغلمان الصغار، يشرف على تدريبهم اثنان وثلاثون أستاذاً. كانت وجوه هؤلاء الغلمان إلى الحائط وأذرعهم مفردة، إذ إنهم كانوا على أهبة الاستعداد لتسلقه بأيديهم وأرجلهم. وبعد سؤاله عن سبب ذلك التدريب، علم أن الهدف منه تليين الأذرع والأيدى.

بعد ذلك، اجتاز ست بوابات أخرى منفصلة عن بعضها البعض حيث رأى الحرفيين ومصانع للأسلحة ومسجداً كبيراً والأسطبل السلطانى حتى وصل إلى الحوش السلطانى – أى الإيوان السلطانى– وذلك بعد اجتيازه البوابة الثامنة حيث قادته هذه البوابة إلى موضع مربع كبير المساحة وجد به كافة المماليك الذين يخدمون السلطان – أى المماليك السلطانية– وكانوا آنذاك – أى سنة ١٤٩٧م– حسب قول أرنولد حوالى ستة عشر آلاف مملوك. وكان السلطان يجلس فى الإيوان السلطانى ثلاث مرات من كل أسبوع ليحكم بين الناس ويستمع إلى طلباتهم. [١]

والملاحظ أن رواية الفارس الألمانى أرنولد فون هارف تقاربت أيضاً مع رواية چوس ڤان غستل إذ أورد أنه بعد مرور الرحالة من خلال ثلاث بوابات عليها حراسة مشددة، وصلوا إلى حجرة السلطان الخاصة به –أى الإيوان السلطانى– وكانت حسنة التأثيث ومزينة بأبهة وفخامة وروعة. وكان السلطان يجلس على دكة (أو مصطبة فى حوش القلعة) مرتفعة تعلوها مظلة مزركشة. [٢]

(١) E. Von Groote, p. 89; Letts, pp.106-107; Dopp, pp. 38-39; Bleser, pp. 84-85.

(٢) E. Von Groote, p. 89; Letts, p.107; Dopp, p. 38; Bleser, p. 85.



رسم رقم (٤) السلطان محمد بن قايتباى جالس على عرشه ويقف على جانبه حارسان

هذا وقد رسم أرنولد فون هارف السلطان وهو جالس تحت هذه المظلة التى كانت على هيئة قبة تتدلى منها ستائر حول الدكة، ويدور حول القبة أفريز مزين بزخارف من معينات، ويجلس السلطان فوق وسائد ثلاث محشوة وضعت فوق غطاء من القماش يتدلى حتى الأرض وتزينه زخارف المعينات. ويضع السلطان فوق رأسه عمامة مملوكية من تلك العمائم التى استحدثها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ويقبض السلطان بيده اليمنى على عصا كالصولجان، أشبه بالدبوس، وعن يمينه ويساره مملوكان من السلاح دارية تمنطق كل منهما بالسيف، وفوق رأس كل منهما عمامة تختلف الواحدة عن الأخرى، وتبدو عمامة المملوك على يسار السلطان وكأنها لفت حول شربوش، ويلبس كل من المملوكين خفا فى رجله يقال له السقمان، وكان غالباً يتخذ من الجلد البلغارى الأسود؛ ويلبس كل منهما قباء فضفاضاً له أكمام واسعة وكمران بحلق وإبزيم. وكان يحيط بالسلطان رجال الحاشية والقضاة والجند.[١]

ويواصل أرنولد سرده قائلا إنه ورفاقه اجتازوا البوابة التاسعة وفيها اسطبلات خيول السلطان، حيث كانت تربى بعض الفحول الرائعة. بعد ذلك مروا من خلال ثلاثة أبواب كان عليها حراسة مشددة، وانتهى بهم المطاف إلى

(١) .E. Von Groote, p. 89; Letts, p.107; Dopp, pp. 38-39; Bleser, pp. 85-86

الوصول إلى غرفة السلطان الخاصة به. وكانت حسنة التأثيث، ومزينة بأبهة وفخامة وروعة. وبعد أن رأوا القصر السلطانى، اتجهوا صوب المدينة.[١]

● مراسم البلاط والقصر السلطانى فى مصنف جوس فان غستل:

والجدير بالذكر أن رواية **جوس فان غستل** عن القصر السلطانى ومراسم البلاط تعد أكثر روايات الرحالة الأوربيين تفصيلا، كما أن بها بعض الاختلافات عن رواية أرنولد وغيره من الرحالة. فقد استهل حديثه بالقول إنه تنفيذا لتعليمات كبير التراجمة والمتعلقة بكيفية التصرف حين المثول أمام السلطان أو عند الاستئذان بالانصراف، قام الرحالة – بمجرد وصولهم إلى حضرته – بالسجود ثلاث إلى أربع مرات، وتقبيل الأرض من أمامه من على بعد منه، والاستمرار فى التقدم نحوه، عند أوائل السماط الممتد إلى تخت الملك. بعد ذلك، تقديم التماسهم إلى أحد حجابه –والمقصود هنا "المَهْمَنْدَار" كما أورد القلقشندى– الذى بدوره يسلمه له. وفى حال المغادرة بعد لقاء السلطان، كان عليهم التراجع إلى الخلف لمدة طويلة إلى أن يصبح السلطان غير مرئى[٢].

(١) .E. Von Groote, p. 89; Letts, p.108; Dopp, p. 39; Bleser, p. 85

(٢) .Bauwens- Préaux, p22; Dopp,p.10. والملاحظ تقارب ما أورده القلقشندى فيما يتعلق بالرسوم المتعلقة باستقبال ملك أو رسول دولة من الدول مع ما سجله چوس ڤان غستل، إذ جاء فيه أنه: "إذا وصل رسول من ملك من الملوك إلى أطراف مملكته، كاتب نائب تلك الجهة السلطان عرفه بوفوده، واستأذنه فى إشخاصه إليه، فتبرز المراسم بحضوره فيحضر فإن كان مرسله ذا مكانة عظيمة... خرج بعض أكابر الأمراء كالنائب وحاجب الحجاب نحوها للقائه... وإن كان دون ذلك تلقاه المهمندار واستأذن عليه الدوادار... ثم يرتقب يوم موكب فيجلس السلطان بإيوانه، وتحضر أعيان المملكة الذين شأنهم الحضور من أرباب السيوف والأقلام، ويحضر ذلك الرسول وصحبته الكتاب الوارد معه، فيقبل الأرض ويتناول الدوادار الكتاب منه فيمسحه بوجه الرسول، ثم يدفعه إلى السلطان فيفضه ويدفعه إلى كاتب السر فيقرؤه على السلطان ويأمر فيه أمره." (انظر: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء- دار الكتب المصرية ١٩١٣-١٩١٩م- ج٤، ص ٥٨-٥٩). إذن لمثول الرحالة بين يدى السلطان كان عليهم التعامل مع شخصين: الأول المترجم الذى يسعى لتحديد يوم استقبال السلطان لهم، كما كانت عليه مسئولية تلقينهم ما يجب فعله قبل وصولهم إلى حضرته. ثم يقوم الشخص الثانى ألا وهو المهمندار=

وبعد أن علموا بتلك المراسم، تم اقتيادهم إلى قصر السلطان، هو قصر بالغ الجمال والفخامة والثراء، وتبلغ مساحته مساحة مدينة ترموند Termonde فى فلاندر Flandre. ويقع على تلة فى أحد جوانب القاهرة[1].

وبوصولهم إلى القصر السلطانى، اجتازوا عشرات المواضع، كانت بالغة الروعة والجمال، كما مروا بأبواب وصالات، حتى وصلوا أمام مسكن صيفى جماله لافت للنظر، ومبنى بالكامل بأحجار جميلة منسقة ومطلية بالذهب، واللازورد، وألوان أخرى ثمينة. ومن هذا المنزل، على الجانبين رأوا من نوافذ جميلة وفخمة مسيجة (بقضبان الحديد) ومطلية بطلاء ذهبى، عديداً من الحدائق التى تبعث على البهجة بأكواخها المبنية من ورق الشجر، وبساتينها العامرة بكافة أنواع النباتات العطرية وأشجار الفاكهة المثمرة. كما وجد أيضاً عدداً كبيراً من الينابيع الصناعية، تتميز بذوقها الرفيع وفنها البديع. وتستخدم هذه الينابيع لرى وترطيب هذه الحدائق والبساتين.

عقب ذلك، دخل الزوار فى قاعة فخمة ذات أعمدة ألا وهى الإيوان السلطانى، حيث جذب أنظارهم أثمن شئ يمكن تخيله فى العالم؛ إذ الحوائط مزدانة بالكامل بأحجار مصقولة عديدة التنوع، وكذا برخام أبيض وأسود وأحمر، والمرمر المرقط، والرخام السماقى والعقيق الأحمر وأحجار ثمينة أخرى متنوعة. كما أن تلك الحوائط مطلية بألوان متنوعة، رسم عليها شرائط معقودة، وأهداب حلزونية، وزوايا، وكتابات عربية؛ إضافة إلى أنها مزدانة بالفسيفساء وغيرها حتى أنه من الصعوبة البالغة تحرى الدقة البالغة فى وصفها[2].

= بسؤالهم عن غرض حضورهم، ويسلم مكاتباتهم إلى كاتم السر. "والمهمندار" هو الذى يتلقى الرسل والعربان والواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويتحدث فى القيام بأمرهم كما سبق أن ذكرنا. انظر: القلقشندى: ج٤، ص ٢٢، ٥٩، ج٥، ص ٤٥٩.

(١) Bauwens- Préaux, p23; Dopp,p.10.

(٢) Bauwens- Préaux, p23-24; Dopp,p.10-11.

وفى وسط الإيوان بقلعة الجبل حوض مربع من الرخام فى وسطه نافورة ماء، يصل عمقه إلى مستوى الركبة، ويبلغ اتساعه من ثلاثة إلى أربعة أذرع[1]، وفيه تسبح أسماك صغيرة ناعمة بمائه البارد؛ ويتم تجديد هذا الماء على الدوام حتى يتسنى للسلطان إنعاش يديه وقدميه بمائه متى إشتاق لذلك[2]. أما أرضية الإيوان، فهى مغطاة بسجاجيد ثمينة، رتبت فوقها وسائد عديدة مغطاة بقماش من الكتان، أو الحرير أو القطيفة، كما أن بعض الوسائد كانت مغطاة بقماش ذهبى اللون أو من الجلد الوارد من الهند الذى تميز لونه بالجمال الفائق والروعة البالغة.

وكان السلطان يقيم فى هذا الموضع، جالساً على وسادة، حيث ثنى ساقيه، منهمكاً فى لعب الشطرنج مع أحد أمرائه. وبمجرد رؤيته، قام الوفد بالسجود وتقبيل الأرض، وكرروا ذلك أربع مرات تنفيذاً للتعليمات التى أوصاهم بها المترجم. وحين وصلوا أمام السلطان، عبروا عن مطالبهم بصوت عال. حينئذ، كرر كبير المترجمين الذى أدخلهم مطالبهم بعد أن ترجمه إلى لغة البلاد أى إلى العربية. وفى واقع الأمر توسلوا من سموه وعظمته أن ينعم عليهم بخطابات وتصاريح أمان حتى يتسنى لهم التنقل فى أمن وأمان فى أراضى سلطنته، علماً بأنهم لا يرغبون اجتياز أى موضع ممنوع ومحرم على المسيحيين اجتيازه، كمدينة مكة المكرمة حيث يبجلون جسد الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وكذا معبد سليمان؛ إضافة إلى كافة المساجد ومواضع الصلاة. كما أنهم على استعداد لدفع كافة الرسوم المطلوبة أثناء اجتيازهم للطرق طبقاً لأوامر وقوانين بلاده؛ وأنهم لا رغبة لهم فى شئ آخر إلا السماح لهم بالتنقل بهدوء وسلام فى أراضى السلطان للزيارة والسياحة ليس إلا[3].

كما ذكر جوس فان غستل أنه فى لقاءات السلطان الرسمية، أى على سبيل المثال عندما يلتقى بكبار السفراء أو كبار الموظفين الموفدين إليه من قبل أمراء أو بلدان، يظهر السلطان كأنه فى استقبال احتفالى، أى فى كامل الأبهة والعظمة.

(١) الذراع يساوى ٥٠ سم.

(٢) Bauwens- Préaux, p24; Dopp,p.11.

(٣) Bauwens- Préaux, pp. 24-25; Dopp,p.11.

وكانت ملابسه دائماً وفى الأساس من الكتان الأبيض، وكانت شديدة الشبه بملابس المماليك. ويضع على رأسه عمامة بيضاء التفت إلى أعلى، متموجة، وبها أحرف، تشبه تماماً التاج[1].

مما تقدم يتضح لنا أن الرحالة البلجيكى جوس فان غستل (١٤٨٢–١٤٨٣م) "الرحالة العظيم" Le Grand Voyageur – كما لقبته ناشرة مصنفه السيدة رونيه بووان بربيو[2] Renée Bauwens – Préaux – زودنا برواية مفصلة وبها بعض الاختلافات حين وصف الإيوان السلطانى ومراسم البلاط، وحين مثل أمام السلطان قايتباى والد السلطان محمد، بل لم يفته ذكر ملابس السلطان ووصفه الجسمانى، ووصل به الأمر أن قال إنه"طيب المزاج"[3]. على أية حال، يعد جوس من أهم رحالة النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى.

- **وصف فيلكس فابرى لمراسم البلاط والقصر السلطانى:**

وإذا انتقلنا إلى تفحص رواية الرحالة الألمانى **فيلكس فابرى** Felix Fabri الذى زار مصر فى الفترة ما بين ٢ سبتمبر إلى ٥ نوفمبر ١٤٨٣م/ ٣٠ رجب إلى ٥ شوال سنة ٨٨٨هـ، نلاحظ أنه جنح إلى الإيجاز، عكس جوس فان غستل، الذى سنحت له الفرصة لزيارة القلعة ومقابلة السلطان ثلاث مرات، وبالتالى زودنا بوصف رائع عن السلطان قايتباى والذى أبدى إعجابه به وبفخامة قصره.

أورد فيلكس فابرى أنه فى الخامس عشر من أكتوبر ١٤٨٣م، مع مطلع النهار، امتطى فابرى فرسه ومرافقوه من الرحالة وكان من بينهم برنار دو بريدنبخ Bernard de Breyenbach، وقادهم تغرى بردى Tanguardin إلى

(١) Bauwens- Préaux, pp. 26; Dopp,p.12.

(٢) Voyage en Egypte de Joss Van Ghistele 1482-1483, Le Caire, 1976, p. I.

(٣) Bauwens- Préaux, pp. 26; Dopp, p.12.

القصر السلطانى[1] – أى إلى قلعة القاهرة[2] – حيث أعجب الرحالة بنظام رائع جذب أنظارهم، كما شاهدوا عددا كبيرا من المماليك – ويسميهم فابرى العبيد – مهمتهم خدمة السلطان. وسجل فابرى وجود عدة اسطبلات شاسعة المساحة، وكذا عدة ردهات كبيرة يصعب على المرء وصف تفاصيلها حتى يمكن القول إن من الصعب تصديق وجود مثل تلك الردهات.

وقد شاهد الرحالة أولا القصر القديم، وسجل فابرى أنه كان آنذاك قد لحق به الخراب، وكان هذا القصر – حسب قوله – قد شيد فيما مضى من حوائط ومبان ضخمة وقوية، وكان يقيم فيه البيزنطيون زمن الفتح الإسلامى لمصر.

عقب ذلك، انتقل الرحالة إلى قصر آخر يقطنه السلطان، وكان عليهم اجتياز أكثر من عشرة أبواب حديدية قبل المثول أمام السلطان قايتباى. وبعد اجتيازهم تلك الأبواب، رأوه فى ملابس البيضاء جالسا، على عرش السلطنة، وهو عبارة عن دكة مرتفعة، يحيط به عدد كبير من المماليك، كل حسب مرتبته، فى احترام بالغ، ونظام جم. كما أحاط به أيضا العديد من ذوى النفوذ من كبار رجال السلطنة من كبار السن. [3]

هكذا جنح فيلكس فابرى إلى الإيجاز الذى لا جديد فيه. أما رفيقه فى الرحلة **برنارد دو بريدنبخ**، فكاد ينقل عنه نقلا حرفيا[4]. وكل الذى أضافه أن الاسطبلات احتوت على عدد وافر من الخيول.

(١) Fabri, II, p. 510; III, p. 936.

(٢) شيد صلاح الدين تلك القلعة واتخذها مقرا له سنة ١٢٠٧م، وعقب ذلك صارت مقرا لسلاطين المماليك البحرية والجراكسة والعثمانيين. أيضا انظر: Fabri, t. II, p. 510; n. 676.

(٣) Fabri, II, p. 510; III, p. 936.

(٤) Bernard de Breydenbach, les Saintes Pérégrinations. Trad. Félix Larrivaz, Le Caire, 1904, pp. 60-61; Fabri, II, p. 510; III, p. 936.

على أية حال، يؤخذ على كليهما إغفالهما تسجيل المراسم المتبعة عند الدخول على السلطان الجالس على عرش السلطنة؛ كذلك لم يحظ القصر السلطاني – رغم فخامته وجماله الرائع حسب وصف غستل – بأي ذكر.

• وصف جان ثونو لمراسم البلاط والقصر السلطاني:

هذا عن رواية أرنولد فون هارف الذي مثل أمام السلطان محمد بن قايتباي ورواية كل من جوس فان غستل وفيلكس فابري ورفيقه برنار دو بريدنبخ – الذي نقل عنه – عن مراسم البلاط والقصر السلطاني في عهد سلفه ووالده قايتباي. أما الرواية الخامسة فهي **للرحالة والسفير الفرنسي جان ثونو** Jean Thenaud (مارس سنة ١٥١٢م/ المحرم سنة ٩١٨هـ) والتي أوردها في مصدره المعنون "رحلة فيما وراء البحار: مصر، جبل سيناء، فلسطين" "Le voyage d'outremer (Egypte, Mont Sinay, Palestine" نشرها شارل شيفر Charles Schefer كما هي بلغتها الفرنسية القديمة دون ترجمتها إلى الفرنسية الحديثة.[١]

أورد السفير الفرنسي جان ثونو أن السلطان الأشرف قانصوه الغوري[٢] (٩٠٦- ٩٢٢م/ ١٥٠١-١٠١٦م) حدد له يوم الاثنين الثامن والعشرين من

(١) Schefer, CH., Voyage d'Outremer, Paris, 1864. وعن تفاصيل هذه الرحلة انظر: فايز نجيب إسكندر: القاهرة في عيني الرحالة الفرنسي جان ثونو – بحث شاركت به في المؤتمر الدولي الثالث الذي أقامته كلية الآداب – جامعة قناة السويس – تحت عنوان "العلاقات المصرية الفرنسية عبر العصور" المنعقد في ١٢-١٣ إبريل ٢٠١١م – ص٢٤٧-٢٧٦. كما نشرته في الجزء السادس من سلسلة أبحاثي العلمية التي شاركت بها في المؤتمرات الدولية العربية وعنوانها "بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى – القاهرة ٢٠١٢ – جـ٦، البحث الأول، ص ١-٥٥.

(٢) ابتلى الناس – ولاسيما القاهريون – في زمن السلطان الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠١-١٥١٦م) بجملة من الأحداث والنوازل التي أقضت مضاجعهم، وراح ضحيتها كثير منهم ومنها الأوبئة والطواعين، والغلاء، والحرائق، واضطراب الأمن وسطو اللصوص والمجرمين. ويذكر المؤرخ المعاصر ابن إياس أن الغوري "مات وله من=

مارس ١٥١٢م/ ١١ المحرم سنة ٩١٨هـ موعدا للاجتماع به. وكان السبب الأساسي لسفارة جان ثونو يعود إلى وقوع أحداث نتج عنها تدهور العلاقات السياسية والتجارية بين سلطنة المماليك الجراكسة وجمهورية البندقية، ورغبة الملك الفرنسي لويس الثاني عشر[١] (١٤٨٩-١٥١٥م/ ٩٠٠-٩٢١هـ) Louis XII الإحلال محل جمهورية البندقية، وذلك بتوثيق علاقاته التجارية مع سلطنة المماليك الجراكسة.

وقد التزم ثونو باليوم الذي حدده السلطان. فمنذ مطلع الفجر، امتطى ورفاقه صهوة خيولهم بصحبة أحد الأمراء المماليك وترجمان السلطان وخمسين من المماليك للتشرف بحضرته. فاجتازوا شارا طويلا أوصلهم إلى القصر السلطاني الذي يقارب اتساعه اتساع مدينة أورليان[٢] Orléans وعلى مدخل هذا القصر – وهو مدخل منكسر بزاوية قائمة يؤدي إلى الحوش السلطاني –، تم

= العمر نحو ثماني وسبعين سنة... وكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما، فكانت هذه المدة على الناس كل يوم منها كألف سنة مما تعدون." (انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ٥، ص٨٧). وفي موضع آخر كان ابن إياس بليغا في تقييم فترة حكمه حين أوجزها قائلا: "وكان للغوري محاسن ومساوئ، لكن مساوئه أكثر من محاسنه". انظر: بدائع الزهور، جـ٥، ص٨٩.

(١) لويس الثاني عشر Louis XII الملقب بـ"أبو الشعب" ولد في مدينة بلوا Blois سنة ١٤٦٢م. وهو ابن شارل دوق أورليان حفيد شارل الخامس المتوفى سنة ١٥١٥م. عرف في أول الأمر باسم دوق أورليان. دب نزاع بينه وبين آن دو بوجو Anne de Beaujeu الوصية على الملك القاصر شارل الثامن Charles VIII، وأسر في بورج Bourges إبان قتال مع جيوش الملك الشاب سالف الذكر طوال ثلاث سنوات إلى أن أطلق شارل الثامن سراحه، وأدرك آنذاك خطأه إلى أن اعتلى العرش سنة ١٤٩٨م، وشهد أوائل عهده العفو التام عن كل أعدائه، وقام بالعديد من الإصلاحات الاقتصادية. وشهدت فرنسا في عهده ازدهارا في العلوم والفنون والآداب والزراعة والتجارة. وخلفه على العرش فرنسوا الأول François I لكونه لم ينجب ولدا ذكرا. للتفاصيل انظر: Bouillet, p. 1120.

(٢) تقع مدينة "أورليان" Orleans على الضفة اليمنى لنهر اللوار Loire على مسافة ١١٩كم جنوب غرب باريس. للتفاصيل انظر: Bouillet, pl. 1390.

إطلاق ضربتى مدفع للاحتفاء بوصولهم؛ وهناك وجدوا أكثر من خمسين من المنشدين والعازفين يعزفون فى هدوء على مختلف الآلات الموسيقية مقطوعة تعبيرا عن فرحتهم بقدومهم وترحيبا بهم. وبعد أن قام الأمير المكلف بحراسة باب القصر بتحيتهم، اجتازوا الفناء الأول، حيث وجدوا أكثر من خمسمائة مملوك، يصطفون فى نظام دقيق، وكان هؤلاء يرتدون الجلاليب البيضاء الطويلة. وكذا اجتازوا الفناء الثانى الكبير، حيث رأوا فى مدخله عديدا من المنشدين والعازفين، والمعدات الحربية – أى المجانيق – لدك الأسوار، وكذا صانعى الأسلحة. بعد ذلك مروا من أمام ما يقرب من ألف من المماليك كانوا مصطفين فى صفوف منتظمة. وأخيرا، وصلوا إلى الفناء الثالث، حيث وجدوا فيه ما يقرب من ألفين من المماليك كانوا أحسن انتظاما من المماليك السابقين.[١]

وفى الحوش السلطانى، كان السلطان متربعا – أى ملوى الساقين حسب قول ثونو – يستند إلى حائط فوق دكة عالية من الحجر الفص، مغطاة بسجاد فاخر والتى تعد سرير الملك. وتشبه طريقة جلوسه جلوس خياطى الحريم فى فرنسا أثناء انهماكهم فى الحياكة. وكان فوق راس السلطان مظلة على شكل قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، تحجب عنه الشمس؛ بينما أمامه، بسطت الأرض بالأبسطة الثمينة التى جاوزت مساحتها عشرين قدماً مربعاً[٢] ولكونه سيستقبل مبعوثين أجانب، حرص السلطان على الظهور فى أعظم مظهر؛ إذ كان يرتدى ثوبا من التفتا – وهو حرير رقيق صقيل – أصفر اللون، وكان على رأسه عمامة من النيل الهندى الرفيع. وكانت هذه العمامة عالية، بها ست ثنيات: ثنيتان على جبهة السلطان، وثنيتان على كل من اليمين[٣] Dextre واليسار[٤] Senestre.

---

(١) Thenaud, pp. 44-45.

(٢) القدم يساوى ٠.٣٤٢٨م. انظر: Dictionnaire Larousse, Paris, 1944, p. 777.

(٣) Dextre بفرنسية العصور الوسطى وDestrier أو Dextrier بالفرنسية الحديثة. وهى كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية Dextera وتعنى اليمين. انظر: Dictionnaire Larousse, p. 297.

(٤) Senestre أو Sénestre وهى كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية Sinister وتعنى اليسار. انظر: Dictionnaire Larousse, p. 939.

وتعرف هذه العمامة باسم "التخفيفة" ومنها نوع كبير له قرون طوال، عرف باسم التخفيفة الكبيرة؛ ويقول عنها ابن إياس "... هى الآن فى مقام التاج لملوك مصر من حين تولوا بها الأتراك – أى المماليك–"، واشتهرت أيضا باسم "الناعورة"[١]. كما وقف على يمين السلطان، فوق البساط سالف الذكر، ستة من كبار أمراء المماليك، كانت ملابسهم شديدة الشبه بملابس السلطان، كما كانوا حفاة؛ كذلك الحال على يسار السلطان؛ أى بلغ مجموع عددهم اثنتى عشر من المماليك.

وكان البلاط السلطانى سالف الذكر شاهدا على تبجيل السلطان من قبل مماليكه. فللمثول أمامه، يقوم المملوك بثلاث انحناءات، إذ يلمس فى كل مرة بأطراف أصابعه الأرض، ثم يقبلها. هذا بينما كان السفير مسموح له بالتقدم والاقتراب حتى طرف البساط لا أكثر. وكان على الترجمان أن يقدم إلى السلطان خطابات الملك، وقبل وصولها إلى يديه، كانت تُمرَّر أولا على كل الأمراء؛ يعقب ذلك إطلاع السلطان عليها، ثم يظهرها للجميع. وبعد ذلك، يسأل عن صحة الملك وأحواله؛ يكرر ذلك ثلاث مرات ويواصل ثونو سرده قائلا: "وسألنا السلطان أيضا منذ متى رحلنا من فرنسا، ليعرف المسافة بين البلدين، كما استفسر عن المدة التى أمضيناها فى مصر"[٢].

وكان السفير يجيب على كافة أسئلة السلطان ومطالبه بحنكة وحكمة قائلا له: "إننا حظينا بالترحاب وحسن الضيافة، ونشعر بأننا فى بلادنا، لكوننا لم نشعر بالغربة، كأننا نقيم فى صروحنا Manoirs"[٣].

● ابن إياس ومراسم البلاط فى سفارة ثونو:

هذا وقد انفرد **ابن إياس** – المؤرخ المعاصر (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م) – دون غيره من المصادر الإسلامية المعاصرة، بتسجيل سفارة جان ثونو ما يدل

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور – بولاق ١٣١١هـ – جـ ٤، ص٢٣١.

(٢) Thenaud, pp. 45-46.

(٣) Thenaud, p. 46.

على مدى أهميتها. وذكر أن هذه السفارة ضمت كبار نبلاء فرنسا وكانوا نحوا ممن خمسين، واستقبلوا بحفاوة بالغة. وفى هذا الصدد أورد أنه:

"فى يوم الاثنين حادى عشره (من محرم) حضر إلى الأبواب الشريفة قصاد من عند ملوك الفرنج الفرانسة (أى ملوك فرنسا)، وكانوا هذا القصاد من رؤساء الفرنج، فأرسل لهم السلطان خيولا يركبونها من بولاق إلى القلعة، فلما طلعوا أوكب لهم السلطان بالحوش، وزينوا لهم باب الزردخاناه[1] وباب القلة بالصناجق[2] واللبوس وآلة السلاح، فلما طلعوا إلى القلعة فكانوا نحوا من خمسين نفراً، ومن أعيانهم اثنين لابسين ثياب مخمل كفوى، فى أرقابهما سلاسل من ذهب، فلما أن وقفوا بين يدى السلطان أظهروا التعاظم ثم باسوا له الأرض، فلما قرؤوا كتابهم انصرفوا وأنزلوهم فى بيت كاتب السر[3] أبو بكر بن مزهر الذى فى بركة الرطلى، ونزل نائب المهمندار[4] صحبتهم، وشقوا من القاهرة، وكان ذلك يوما مشهودا." [5]

(١) "الزردخاناه" أى بين السلاح. انظر: انطوان خليل ضومط: الدولة المملوكية – بيروت ١٩٨٢ – ص٣٨٢.

(٢) "الصناجق" أو السناجق مفردها سنجق، وهو لفظ تركى كان يطلق أصلا على الرمح، ثم أطلق على الرايات الصفر الصغار التى تربط بطرف الرمح، ويحملها السنجقدار. وكانت السناجق تحمل بين يدى السلطان فى مواكبه. انظر: فايز نجيب إسكندر: الأشرف خليل وفتح قلعة الروم، البحث السابع فى كتابى بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى – القاهرة ٢٠٠٧ – جـ١، حاشية٢؛ وكذا كتابات ابن إياس وابن زنبل الرمال عن الفتح العثمانى لمصر البحث السابع من السلسلة السابقة، جـ٢، ص٢٦٥، حاشية ٥.

(٣) "كاتب السر" مهمته قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابه أجوبتها وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها، وتصريف المراسيم ورودا وصدرا، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها، ومشاركة الدوادار فى كافة الأمور السلطانية. للتفاصيل انظر: القلقشندى: جـ٤، ص٣٠.

(٤) "المهمندار" مهمته تلقى الرسل الواردين وأمراء العربان وغيرهم ممن يرد من أهل المملكة وغيرهم. انظر: القلقشندى: جـ٤، ص٢٢.

(٥) بدائع الزهور فى وقائع الدهور – تحقيق محمد مصطفى – القاهرة ١٩٨٤ – جـ٤، ص٢٥٥.

مما تقدم، نلاحظ أن ابن إياس جنح إلى اختصار مراسم البلاط لكونها من الأمور الطبيعية والمعتادة بالنسبة إليه، بينما كان ثونو أكثر تفصيلا لأن مراسم البلاط تلك لم ير مثلها فى وطنه فرنسا أو غيرها من البلدان

• ابن إياس ومراسم البلاط فى سفارة تريفيزان:

كذلك انفرد ابن إياس دون غيره من المصادر الإسلامية بذكر مراسم استقبال غريمه دومينيكو تريفيزان ألا وهو سفير البندقية إلى بلاط السلطان قانصوه وذلك يوم الاثنين ٢٣ صفر سنة ٩١٨هـ / ١٠ مايو سنة ١٥١٢م، وكان غرض هذه السفارة تصفية ما شاب العلاقات بين البندقية وسلطنة المماليك الجراكسة، وإعادة المياه إلى مجاريها وكذا العلاقات التجارية التى كانت قد توقفت، وسد الطريق على المبعوث الفرنسى جان ثونو الذى يريد الصيد فى الماء العكر وذلك بالإحلال مكان البنادقة كما سبق أن ذكرنا.

جاء فى ابن إياس:

"... حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد ملك الفرنج البنادقة، فكان له يوم مشهود، وأوكب السلطان فى ذلك اليوم وزيَّن باب الزردخاناه (أى بيت السلاح) باللبوس والسلاح، ثم طلع القاصد وصحبته تقدمه حافلة (أى هدايا كثيرة) نحو مائة حمَّال ما بين أوانى بلور وجوخ ومخمل وأثواب مخمل تماسيح وشقق وحرير أطلس وغير هذا أشياء حافلة. فطلع القاصد وهو راكب على فرس وقدّامه سبعة أنفس من أخصَّائه وهم راكبون على خيول والباقى مشاة، فكانوا نحو خمسين إنسانا من جماعة القاصد الذين جاؤوا صحبته، وكان القاصد رجلا شيخا بذقن بيضاء وهو جسيم وعليه وقار، وكان لابسا خلعة جرّ ذهب على حرير أصفر فطلعوا إلى القلعة، وقابلوا السلطان ثم نزلوا إلى مكان عُدَّ لهم..." [1]

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور– جـ٤، ص٢٥٩.

نستخلص من النص سالف الذكر أن هدايا دومنيكو تريفيزان Domenico Trévisan فاقت فى كثرتها وتنوعها تلك التى حملها ثونو. لذا نجح السفير البندقى فى إفشال سفارة ثونو. هذا وقد أورد تريفيزان فى سفر رحلته تفاصيل تلك الهدايا المقدمة إلى العديد من كبار رجال البلاط المملوكى وعلى الأخص السلطان الغورى [١] وزوجته [٢]، والدوادار الكبير [٣] Au Grand Diodar وكبير الأمراء [٤] Au Grand Amiral. وفى اليوم التالى من وصول تريفيزان، أهداه السلطان كماً هائلا من المواد الغذائية [٥]، كان ذلك قبل أن يلتقى به.

والجدير بالذكر أن دومنيكو تريفيزان هيمن عليه الذهول حين رأى فخامة قصر السلطان الغورى، إذ أورد فى سفر رحلته: "... رأينا قصرا من الاستحالة أن نجد مثيلا له فى هذه المدينة – أى فى القاهرة – ولا فى أى مكان آخر فى العالم. ويقال إن ما صرف عليه لتشييده بلغ أكثر من مائة ألف دوكة". [٦]

---

(١) La Relation de L'ambassade de Domenico Trevisan Auprès du Soudan d'Egypte, .pp. 186-187.

(٢) .La Relation, p. 191.

(٣) La Relation, pp. 191-192. عن الدوادار زودنا القلقشندى برواية مختلفة إذ أورد أنه مكلف "بتبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد، هو وأمير جاندار وكاتب السر ويأخذ الخط على عامة المناشير والتواقيع والكتب. وإذا خرج عن السلطان بكتابة شئ بمرسوم، حملت رسالته وعينت فيما يكتب...وفى هذه الوظيفة عدة من الأمراء والجند". انظر: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٩.

(٤) .La Relation, p. 192.

(٥) .La Relation, p. 181-182.

(٦) جاء فى هذا المصدر: "... Nous Vîmes un palais dont il serait impossible de trouver les pareil en cette ville et partout ailleurs. On estimait à plus de cent mille Ducats la somme dépensée pour sa construction." انظر: Trévisan, p. 181. علما بأن الدوكة آنذاك كانت تزن ما بين ٣.٣٠ و٣.٤٨ جراما من الذهب. انظر: Van Gennep, A., Le Ducat Vénitien en Egypte. in R. N., t. I, 1897. p. 499.

هكذا عاش السلطان فى نعيم، بينما كان شعبه فى جحيم؛ بسبب أحوال مصر المتردية أواخر عهد سلاطين المماليك الجراكسة وذلك فى كافة مناحى الحياة من اقتصادية واجتماعية وسياسية وعسكرية؛ كما أن الكوارث الطبيعية والأوبئة والأمراض والأخطار الخارجية والثورات الداخلية والاقتتال بين كبار الأمراء للتربع على العرش أفضت مضاجع السلاطين أواخر عهد السلاطين الجراكسة. [١]

● الدراسة التحليلية النقدية المقارنة:

نخلص مما تقدم – فى تعقيب موجز – أن كل رحالة كان له إضافة بارزة لم يذكرها أو يسجلها سواه. فإذا بدأنا **بأرنولد فون هارف**، نلاحظ أن أهم ما زودنا به دون غيره لوحة ناطقة / بالغة الروعة للسلطان محمد بن قايتباى وهو جالس القرفصاء على عرشه، وهو عبارة عن دكة فوقها مظلة مزركشة، ويقف على جانبه حارسان – كما سبق أن ذكرنا – والصورة تغنى عن قراءة ما سجله فى هذا الصدد. فعيناه كانا بمثابة كاميرا تصوير أحسنت التقاط هذه الصورة المعبرة خير تعبير، رسمها فنان يتمتع بموهبة فذة فى الرسم.

أما جوس فان غستل، فنلاحظ أن أهم ما انفرد به هو: تزويدنا بوصف بالغ الروعة والدقة للقصر السلطانى، نكاد نستشف منه أن كاتبه يعمل مهندسا معماريا. إذ تحدث عن الطراز المعمارى للقصر، وكذا زخارفه وحدائقه بنباتاتها العطرية وأشجارها المثمرة. ووصل به الأمر إلى البحث عن كيفية تزودها بالمياه، فعثر على ينابيع المياه التى تغذيها. كما سجل وجود حوض خاص يتوسطه نافورة ماء تسبح فيه أسماك صغيرة – أى أسماك الزينة – ودقق فى وصف حوائط القصر وأرضيته وسجاجيده الثمينة.

---

(١) للتفاصيل انظر: فايز نجيب إسكندر: مصر فى كتابات الرحالة الروس – القاهرة ١٩٨٨ – ص١٠-١٩.

وإذا انتقلنا إلى دراسة تحليلية نقدية مقارنة لما سجله **فيلكس فابرى** فيمكن القول إنه "قل ولا دل"، رغم أنه يعد أعظم رحالة النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى، فمصنفه "رحلة إلى مصر" Voyage en Egypte بمثابة دائرة معارف عن أحوالها فى العقد الثامن من القرن الخامس عشر الميلادى، لكونه مصدرا بالغ الأهمية لدارسى أدب الرحلة وأحوال مصر عامة. إذ تناول بالشرح آثار مصر، وعادات وتقاليد المصريين، وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية. ولم يفته ذكر بعض الأساطير والطرائف. وبالتالى يعد مصدره سجلا لحضارة مصر أواخر عصر سلاطين المماليك الجراكسة[1]. ومع ذلك لم نستفد منه بشئ يذكر عن مراسم البلاط ووصف القصر السلطانى، كذلك كان حال مصنف رفيقه **برنار** الذى نقل عنه الكثير.

وبينما جنح فابرى وبرنار إلى الإيجاز الشديد، زودنا السفير الفرنسى **جان ثونو** Jean Thenaud بالكثير من التفاصيل عن مراسم البلاط والقصر السلطانى، ولكن جوس فان غستل فاقه فى ذلك.

وأهم ما انفرد ثونو بذكره هو الترحيب البالغ الذى حظى به هو ورفاقه، من ذلك إطلاق ضربتى مدفع للاحتفاء بوصولهم، ووجود أكثر من خمسين من المنشدين والعازفين، كانوا يعزفون على مختلف الآلات الموسيقية مقطوعة، تعبيرا عن فرحتهم بقدومهم.

ويبدو أن سبب اهتمام السلطان قانصوه الغورى (٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠١- ١٥١٦م) بهم، أن الرحالة قدموا إليه هدية جميلة للغاية تبلغ قيمتها أكثر

(١) ترجم العالم الفرنسى جاك ماسون Jacques Masson مصنف فيلكس فابرى من اللاتينية إلى الفرنسية، وهى النسخة الكاملة وشكلت الجزء الأول والجزء الثانى. أما الجزء الثالث، فقد أعده فابرى باللغة الألمانية بناء على طلب رفاقه، ويعد ملخصا للنسخة اللاتينية، وبه القليل من الاختلاف والإضافات. للتفاصيل انظر: المقدمة التحليلية الرائعة التى أعدها جاك ماسون: Masson, S. J., Voyage en Egypte, I. F. A. O., 1975, t. I, pp. I-XIV.

من ألفين من الدوكات، ضمت بعض الأوانى الفضية، وأغطية السراير الحريرية، والأقمشة الصوفية والحريرية، والفراء والجلود والبياضات.[1]

والملاحظ تشابه رواية جان ثونو فى حديثه عن الحوش مع رواية أرنولد فون هارف؛ إلا أن تصوير أرنولد للسلطان قايتباى جالسا على عرشه – أى دكة فوقها مظلة مزركشة – ويقف على جانبه حارسان، جعلت من روايته أكثر وضوحا وتعبيرا عن رواية غيره من الرحالة بما فيهم ثونو.

● الجامكية:

وبعد هذه الدراسة التحليلية النقدية المقارنة المتعلقة برسوم البلاط والإيوان السلطانى، نعود ثانية لتتبع رواية أرنولد، حيث يتحدث عن الجامكية – وجمعها الجوامك – إذ ذكر أنه بمجرد خروج الرحالة من القصر السلطانى قابلوا أمامه أكثر من ألف شاب[2]، بشرتهم داكنة السواد، ينتمون جميعهم إلى الجيش المملوكى. فسأل أرنولد المملوكين الألمانيين المصاحبين له عن سبب اتجاه كل هؤلاء الشباب نحو القصر السلطانى حاملين الزكائب والسلال. فأجابا بالقول إن السلطان الحالى – أى محمد بن قايتباى – تحت إمرته آنذاك ما يقترب من خمسة عشر ألف من المماليك، وهم من المسيحيين المرتدين، كما أن ما يقرب من ألف منهم قتل هذا العام[3] – أى عام ١٤٩٧/ ٩٠٢هـ –.

(١) Thenaud, p. 43.

(٢) فى الترجمة الألمانية التى أعدها هـ. فون جروت، أكثر من ألف، وكذا فى الترجمة الإنجليزية لماكولم لتس والترجمة الفرنسية التى أعدها بول بليزيه. انظر: E. Von Grotte, p. 89; Letts, p. 108; Bleser, p. 85. ولإجماع الثلاثة فهو العدد الصحيح. أما العدد الخطأ فقد سجله ب. هـ. دوب، إذ أورد فى ترجمته الفرنسية الآتى: "Nous Rencontrâmes plus de deux mille..." "لقد قابلنا أكثر من ألفين..". أنظر: Dopp, p. 39.

(٣) من المعتقد أن السلطان الناصر أبا السعادات محمد بن قايتباى قام بشراء هؤلاء المماليك من سوق النخاسة لتعويض ما قتل فى الحرب الدائرة على عرش السلطنة. فبمجرد توليه العرش، تآمر عليه بعض كبار الأمراء للقبض عليه وعزله عن الحكم. =

ويتطرق أرنولد بعد ذلك للحديث عن الجوامك، فيقول إن السلطان يعطى مماليكه سالفى الذكر راتبا شهريا قدره ستة شيرافين[١] Scherafins أى ما يساوى ست دوكات[٢]. إضافة إلى ذلك، يزود كل مملوك من مماليك قصره جراية – أى حصة يومية من الطعام – مقدارها نصف كيلو (Livre) من اللحم النىء، إضافة إلى خبزتين، كل خبزة كبيرة مسطحة الشكل تتكون من الدقيق والزبدة والبيض؛ وأخيرا حمل شعير لفرسه. كما أن هؤلاء يتقاضون راتبا

= ففى جمادى الأولى سنة ٩٠٢هـ/ فبراير ١٤٧٩م، ترأس الأمير قانصوه خمسمائة الكثير من مناصريه، فاتجه الجميع إلى القلعة لتنفيذ مخططهم. إلا أن المماليك الأشرفية – أى مماليك والده الأشرف قايتباى – وكانوا حوالى ألف مملوك، ناصروا السلطان الشاب، فعاد ثانية إلى عرش السلطنة، وتلقب بالأشرف. وقد أشار أرنولد إلى هذه المؤامرة بإيجاز – كما ورد فى صفحات سابقة. إلا أن المؤرخ المعاصر ابن إياس كان أكثر تفصيلا. انظر: ابن إياس: جـ٣، ص٣٤٢-٣٤٥.

(١) "شيرافين" Scherafins فى الترجمات الأربع التى استخدمناها عن سفر أرنولد، ويتفحص مصنف الرحالة الفرنسى جان ثونو الذى نشره شارل شيفر كما هو باللغة الفرنسية القديمة – وليس الحديثة – وجدنا فيه هذه العملة Seraphs. وقد جاء فى مصنف ثونو: "Les coffres et bagaiges furent conduictz dès le port audict logis par deux cameaulx pour lesquelz furent payez **Cinquante Seraphs D'or**, car telle est la coustume.". والملاحظ أننا لم نعثر لا على كلمة Scherafins ولا على كلمة Seraphs فى دائرة معارف لاروس Encyclopédie Larousse ولا فى القواميس الفرنسية القديمة والحديثة ولا القواميس اللاتينية. وهدانا الله إلى التعمق فى قراءة مصادر عصر الغورى ثم الفترة السابقة عليه أى عصر الأشرف برسباى (٨٢٥-٨٤١هـ / ١٤٢٢-١٤٣٨م)، وبذلك عثرنا أن الأمر يتعلق بالدينار الأشرفى نسبة إلى السلطان الأشرف وأن الرحالة جان ثونو شوه كلمة الأشرفى إلى "سيراف" Seraphs وصحتها بالفرنسية Ashrafi "أشرفى". وقد بذلنا مجهودا مضنيا حتى اكتشفنا ترجمتها الصحيحة التى شوهها ثونو كلية وسنتحدث عن تلك العملة فيما بعد.

(٢) يتنافى قول أرنولد مع بحث أعده أ. فان جننب A. Van Gennep الذى أرجع السبب الرئيسى لإقبال العديد من البلدان الإسلامية على استخدام دوقات البندقية هو وزنها الثابت (تزن ٣.٣٠ جراما ذهبيا)، وعيارها مرتفع؛ إضافة إلى دقة سكها من حيث استدارة القطعة منها تماما. هذا بينما الدنانير المملوكية مختلفة العيار والوزن والسمك والقطر؛ لذا كان التجار يضطرون عند التعامل بها إلى وزنها، بينما يكتفون بعد الدوقات. أنظر: Le Ducat Venitien en Egypte, in R. N., t. I, pp. 499-501.

شهريا جيدا وكافيا للغاية. وعندما ساروا فى اتجاه القصر، كانوا ذاهبين لتلقى كل ما سلف ذكره حسب قول المملوكين الألمانيين.[١]

والجدير بالذكر أن المماليك كانوا سندا للسلطان، فقد رأينا أن المماليك الأشرفية أعادوا ابن سيدهم الأشرف قايتباى إلى عرش السلطنه؛ لذا كان سلاطين المماليك عامة يعتمدون عليهم، بل وسعى كل سلطان للإكثار من مماليكه للاستقواء بهم فى مواجهة الطامعين فى عرش السلطنة وما أكثرهم آنذاك، إضافة إلى رغبة السلطان تحقيق رغبته فى أبهة تملك أعداد هائلة من الجند والحاشية. تحقيقا تلك الغاية، أغدق السلاطين على مماليكهم الأرزاق والأموال والأطعمة المختلفة والكسوات الفاخرة.

• الجامكية فى رواية جوس فان غستل:

هذا ما زودنا به أرنولد عن الجوامك، أما **جوس فان غستل**، فقد اختلفت روايته قليلا عن ما أورده أرنولد إذ أورد أن كل مملوك مرتزق يتقاضى راتباً شهريا قدره عشر دوكات ويعد راتباً كبيراً جداً. وذكر كذلك أن السلطان حين يخوض حرباً –وهذا ما يحدث كثيراً فى موضع أو فى آخر– حينئذ يتقاضى كل مملوك لعتاده وتجهيزاته مائة دوكة، حتى يتمكن من تجهيز اثنين من الخيول الممتازة، وجملاً لحمل أمتعته ومؤنه؛ إضافة إلى ذلك، يتسلم راتبه الشهرى وقدره عشر دوكات كما سبق أن ذكرنا[٢].

---

(١) E. Von Groote, p. 89; Letts, p. 108; Dopp, p. 39; **Bleser, p. 86**. والسطل، كيل قديم يساوى أربعة لترات ونصف. انظر: المنهل – بيروت ١٩٨٠ – ص٩٥٤.

(٢) حقيقة الأمر، كانت النفقة من العلاوات التى كان يحصل عليها الأمراء والأجناد معاً فى مناسبات معينة، ولكن نصيب الأمراء منها كان أوفر، إذ كانوا يلتزمون بتوزيع قسم منها على مماليكهم وبخاصة نفقة التجريدة أو الحرب، كى يتمكن المماليك من تجهيز أنفسهم لمرافقة أساتذتهم إلى الحرب. ولم يكن الأمراء يتقاضون نفقة ثابتة، إذ كانت تتأثر باعتبارات عديدة ليس أقلها اهتمام السلطان بالحرب الطارئة، ومقدار موازنة الخزانة السلطانية، أو خوف اسلطان من الثورة عليه وخلعه. للتفاصيل انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١١٦؛ ج١١، ص٢٦٠؛ ج١٢، ص ١٩٨. =

كما يستفاد المملوك أيضاً من تقليد مفاده أنه حين يرزق السلطان بأطفال ذكور، حينئذ يصرف لكل مملوك مائة دوكة. وفى واقع الأمر، يرزق السلطان أحياناً بأولاد ذكور، إلا أنه كان يتكتم الخبر ولا يظهرهم، وذلك ليتحاشى دفع مبالغ طائلة لمماليكه. وقد أستن المماليك تلك العادة حتى لا يحاول السلاطين أن يورثوا أبنائهم السلطنة كما حاولوا فى الماضى[1].

• الجامكية فى رواية جان ثونو:

هذا وقد تحدث **جان ثونو** عن الجامكية فى أسطر قليلة أثناء حديثة عن السلطان ومقر إقامته فيقول إن القصر السلطانى وحدائقه آية من آيات الجمال ويدعو للإعجاب، إذ يفوح منه الثراء البالغ والروعة. يتكفل بحراسته عشرة آلاف من المماليك، إضافة على عدد مساوٍ لهم من الخيل، ويتحمل السلطان إقامتهم وشرابهم، وإطعامهم. كما أن فى مدينة القاهرة أيضا ما بين عشرة إلى عشرين ألف من المماليك، يدفع السلطان لكل واحد منهم جامكية[2] شهرية قدرها عشرة دنانير أشرفية.

بعد ذلك تناول ثونو مراتب المماليك فقال إن هناك أمراء الثلاثين وأمراء المائة وأمراء الألف: أى أمير يترأس ثلاثين من المماليك، أو مائة، أو ألف مملوك. ويعقب على ذلك بقوله إن هذا يتطلب من السلطان دفع مبالغ طائلة لهؤلاء من خزانته؛ كذلك كان على السلطان أن يكسب ودهم وتلبية مطالبهم

= انظر أيضاً: أ.ن. بولياك: الإقطاعية فى مصر وسوريا وفلسطين ولبنان -بيروت ١٩٤٩م- ص ٢٥-٢٦.

(١) .Bauwens- Préaux, p.33; Dopp, p.14. وقد أورد المقريزى أنه إذا رزق السلطان بولد ذكر، كانت تدق البشائر بالقلعة -أى تدق الطبول- وفى تلك المناسبة السعيدة كان السلطان ينعم على الأمراء بخلع. وفى يوم السبوع، يتم الاحتفال بالمولود، ويحضر هذا الحفل زوجات السلطان ونساء الأعيان. انظر: المقريزى: السلوك، ج٢، ص ٧٦٤.

(٢) .Bauwens- Préaux, pP.30-32; Dopp, pp.12-14. كان "مماليك السلطان" يرأسهم "مقدمو المماليك السلطانية"؛ بينما الأمراء يرأسون مماليكهم. للتفاصيل انظر: القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٥-١٦؛ المقريزى: الخطط، ج٣، ص ٣٥٤.

اليومية قدر الإمكان. وفى حال اعتلاء سلطان جديد سدة الحكم، يتحصل كل مملوك ما بين مائة أو مائتى دوكة[1]؛ ولا أدرى لماذا لم يحدد ثونو المبلغ بالدينار الذهبى الأشرفى كعادته، بل حوّل قيمته إلى دوكات.

• الجامكية فى رواية فرنسسكو سوريانو:

أما الرحالة **فرنسسكو سوريانو** Francesco Suriano الذى زار مصر سنة ١٤٩٤م حيث أمضى بها فصل الصيف وانفرد بتزويدنا بالجديد. وفرنسسكو هذا ولد بالبندقية سنة ١٤٥٠م، وهو من أصل سورى.[2]

تحدث فرنسسكو عن الجوامك، فأورد أنه فى مدينة القاهرة جيش نظامى دائم قوامه أربعة وعشرين ألف مملوك – أى جندى حسب قوله – يحكمون ويتحكمون فى ربوع البلاد، وهم أسيادها. وجميعهم يتقاضون رواتبهم الشهرية من السلطان. وينفرد دون غيره من الرحالة بتسجيل اختلاف راتب المملوك فى وقت السلم عنه فى وقت الحرب؛ إذ يقول يتقاضى المملوك فى وقت السلم أربع دوكات شهريا خلاف الخبز واللحم والشعير اللازم لفرسه. أما فى وقت الحرب، فيتسلم راتبا شهريا قدره عشر دوقات؛ إضافة إلى مخصصات إضافية مقدارها مائة دوكة عند مغادرته القاهرة للمشاركة فى حملة عسكرية.[3]

---

(١) .Thenaud, p. 49.

(٢) Francesco Suriano, in Dopp, Le Caire, t. XXVII, pp. 26-27 كان فرنسسكو قد ألقى القبض عليه وأمضى شهرين سجينا فى القاهرة بعد هجوم فرسان جزيرة رودس على مصر فى جمادى الآخر سنة ٩١٦هـ/ أغسطس ١٥١٠م وشارك البنادقة فى هذه الحملة بأربع سفن. واشتبك الأسطول المصرى مع الأسطول الصليبى بالقرب من ساحل قلعة إياس جنوب شرق آسيا الصغرى. ونتج عن هذه المعركة البحرية قتل محمد بك قائد السفن المصرية واستيلاء الصليبيين على نحو ثمانى عشرة سفينة مصرية مشحونة بالأسلحة والمعدات الحربية. فما كان من السلطان الغورى أن ألقى القبض على القناصلة الأوربيين بالإسكندرية ودمشق وطرابلس وكبار قوم الفرنج كان من بينهم فرنسسكو سوريانو. للتفاصيل انظر: ابن إياس: جـ٤، ص٢٥٩. انظر أيضا: La Relation de Domenico Trevisan, pp. 186-187; Dopp, t. XXVII, p. 27.

(٣) .Dopp, t. XXVII, pp. 29-30.

والملاحظ أن قلة من الرحالة تكلموا عند الجوامك عكس الحال فيما يتعلق بالإيوان السلطانى ومراسم البلاط.

• زيارة أرنولد لمدينة القاهرة:

ويعود أرنولد ثانية للحديث عن العاصمة المصرية فيذكر أن المملوكين الألمانيين قاداه نحو تل مرتفع يقع جنوب شرق قصر السلطان، - ويقصد هنا جبل المقطم - فصعده مع الرحالة، ومن هذا العلو رأى الجميع القصر السلطانى وكافة أرجاء مدينة القاهرة.

وقيل له إن تلك المدينة يبلغ محيطها ستة وثلاثين ألف ميل[١] فرنسى. ومن هذا العلو رأوا أيضا حديقة البلسان فى اتجاه الجنوب[٢]، ومجرى نهر

(١) الميل ١٨٥٢ مترا. انظر: المنهل - بيروت ١٩٨٠، ص٦٦٨. وفى هذا الصدد أورد جوس فان غستل أن من سبقوه من الرحالة كانوا يعتقدون أن اتساع مدينة القاهرة يكاد يدانى آنذاك اتساع مدينة جند Gand فى فلاندر Flandre؛ إلا أنها حاليا أصبحت أكثر اتساعاً فى كافة نواحيها وجوانبها بسبب الكم الهائل من المنازل المنتشرة فى كافة أرجائها مما يبعث على الدهشة والتعجب. وكانت المدينة آنذاك مفتوحة بلا أسوار، عظيمة الاتساع، حتى إنه لا يمكن الالتفاف حولها إلا على متن جواد فى رحلة تدوم اثنى عشرة ساعة. ولاحظ جوس فان غستل أن القاهرة أكثر طولا وأقل عرضا، أى أنها مدينة طولية، وتتطور لتصبح على شكل وادٍ. (Bauwens-Préaux, p. 17; Dopp, p. 7.). هذا وقد أورد برنار أورد برنارد دو بريد نبخ "أن الالتفاف حول القاهرة، يتطلب من الفارس عشر ساعات على الأقل". إذا جاء فى هذا المصدر: "..... Un Cavalier ... pour en faire le tour, il faudrait au moins 10 Heures." انظر: Les Saintes Perégrinations de Bernard de Breydenbach, p. 55. بينما اكتفى برنارد فى موضع آخر بذكر أن عرضها نصف فرسخ ألمانى، وفى بعض المواضع أكثر من ذلك، لكنه لم يتحدث عن طولها. (علما بأن الفرسخ أربعة كيلو مترات تقريبا؛ انظر: Bernard, p. 55.

(٢) صحتها فى اتجاه الشمال. انظر: Dopp, Arnold, p. 40, n. 1. لم يكتشف هذا الخطأ كل من E. Von Groote و Malcolm Letts ولا Paul Bleser. اكتشفه فقط P. H. Dopp. لكونه كان أستاذا مساعدا بكلية الآداب - جامعة القاهرة (فؤاد الأول آنذاك) وذلك فى أوائل الخمسينيات من القرن العشرين، ويعرف جيدا كافة أرجاء مدينة القاهرة.

النيل. أما باتجاه الجنوب الغربى، فقد شاهدوا العديد من الأبراج شاهقة الارتفاع، ويطلقون على ثلاثة منها اسم "كاسا فراعونيس" Cassa Faraonis أى "مخازن غلال فرعون" - ويقصد هنا الأهرام الثلاثة-.

ويبدو أن أرنولد كان شديد الانبهار بالقاهرة حتى كاد لا يصدق ما رآه إذ يقول: "والآن سأقوم بوصف بعض ما جذب انتباهى بتلك المدينة الساحرة الرائعة، حتى يكاد المرء لا يصدق ما يرى، إذ لا يوجد مثيل لها فى بلادنا - أى فى ألمانيا - فقد اصطحبنى المملوكين الألمانيين من موضع لآخر لزيارة معالمها.[١]

ومع ذلك، يؤخذ عليه أنه نسى أنه سبق له الحديث عنها فى لمحة سريعة خاطفة بقوله إنها مدينة كبيرة مكتظة بالسكان، ولها ثلاثة أسماء[٢]. ويبدو هنا قد رغب فى ذكر بعض التفاصيل عن محبوبته العاصمة المصرية. وكان من الأفضل أن ينقل سرده هذا حين أشار إليها لأول مرة.

• شوارع القاهرة:

بعد ذلك، بدأ أرنولد بوصف شوارع القاهرة فذكر أن بها أربعة وعشرين ألف شارع وحارة، ومن بين هذه الشوارع العديدة، يدرج فقط أربع وعشرون شارعا فى عداد الشوارع الرئيسية. ويبلغ طول أحد هذه الشوارع الرئيسية وأكبرها أكثر من ميلين. ويأتى من المطرية حيث ينمو شجرة البلسان (البلسم)، ثم يخترق المدينة إلى أن ينتهى به المطاف فى بابليون Babylone -أى مصر القديمة- أما

(١) E. Von Grotte, p. 90; Letts, pp. 108-109; Dopp, pp. 39-40; Bleser, p. 86. والملاحظ أن بول بليزيه انفرد بالقول على لسان أرنولد الآتى: "سأسرد الآن بعض الحرف الغريبة التى تمارس فى تلك المدينة الكبيرة..." انظر: Bleser, p. 86.

(٢) انظر: E. Von Grotte, p. 76; Letts, p. 102; Dopp, p. 35; Bleser, p. 80. انظر أيضا نص روايته الأولى مع الدراسة التحليلية النقدية المقارنة مع معاصريه من الرحالة الأوروبيين فى الصفحات السابقة من البحث.

الشوارع الأخرى، فهى أقل طولا، إذ يبلغ طول الشارع ما بين ميل ونصف، وميل، أو نصف ميل ألمانى. وبالقاهرة شوارع لا حصر لها فى غاية الصغر.

كما تغلق كافة الشوارع فى بدايتها ونهايتها ليلا، وهناك أبراج شاهقة للمراقبة، ومهمتها مواجهة هجمات المماليك على قاطنيها. ويقال إن عدد أبواب تلك الشوارع يقدر بثمانين ألف باب، مكلف بحراستها ما يقرب من ثمانين ألف حارس، وكل حارس مكلف بالتبليغ الفورى عن الحرائق والدجيج والهرج والمرج الذى يحدث فى الشارع المكلف بحراسته(١).

هكذا زودنا أرنولد بقدر معقول من المعلومات المتعلقة عن شوارع القاهرة. ومن المؤكد أنه تحصل عليها من المملوكين الألمانيين، فاعتقد بصحتها لكبر المدينة. وبالتالى يؤخذ عليه جنوحه إلى المبالغة العددية، فى زمن انعدم فيه الإحصاء الدقيق.

- **الدراسة التحليلية النقدية المقارنة:**

وبتمحيص كتابات الرحالة الآخرين، نلاحظ أنهم كانوا أقل مبالغة من أرنولد. فقد جاء فى **رحلة التاجر الروسى باسيل** Le Marchend Basile إلى مصر وذلك سنة ١٤٦٥م "أن مدينة القاهرة مدينة كبيرة مترامية الأطراف، بها أربعة عشر ألف شارع، ولكل شارع بابان وبرجان وحارسان، من أعمالهما حراسة الشارع وإضاءته بالمصابيح الزيتية. ولكل شارع سوق كبير يكفى القاطنين به لسد احتياجاتهم اليومية(٢). إذاً ضاعف باسيل عدد حراس كل شارع، كما خفض عددها وأشار إلى كيفية الإضاءة ليلا.

أما **جوس فان غستل** (١٤٨٢- ١٤٨٣م) فقد لاحظ أن شوارع القاهرة ضيقة للغاية، لدرجة أنه يصعب -فى بعض المواضع- على ثلاثة أشخاص السير

---

(١) .E. Von Groote, p. 90; Letts, p. 109; Dopp, p. 40; Bleser, pp. 86-87.

(٢) .Oleg, Voyageurs Russes, I.F.A.O; 1972, p.4; Dopp, Le Marchand Basile, p. 107.

معا فى صف واحد متراص بسبب ضيق عرض الشارع. والملاحظ أيضاً أن تلك الشوارع الضيقة حالكة الظلام حتى إن الخفافيش تطير فيها ليل نهار(١).

وفى اتجاه وسط المدينة، يوجد شارعان جميلان وكبيران يطلق عليهما اسم "البازار الكبير" Les Basares Kebier. حيث يرتادهما جموعاً غفيرة من الناس حتى يصعب السير فيهما إلا بمشقة بالغة، خاصة فى بعض ساعات الذروة من النهار، والملاحظ أن معظم منازل هذين الشارعين عبارة عن مقاه صغيرة أو محلات لبيع المواد الغذائية، حيث يباع فيها الخبز واللحوم والأسماك وكافة أنواع الفاكهة الشهية التى تجذب المرء لشرائها. أما فيما يتعلق بالمشروبات، فلا يباع فيها عادة سوى الماء(٢). كذلك تباع الأخشاب فى بعض المحلات بالميزان (٣). وغالبية الشوارع يتم فصل بعضها عن بعض بواسطة الأبواب (٤).

فى حين اكتفى الرحالة البلجيكى **جان أيرتس** Jean Aerts الذى زار القاهرة سنة ١٤٨٢م، بالقول "إن بها ثلاثين ألف شارع ودرب" (٥).

كما زودنا **فرنسسكو سريانو** الذى زار القاهرة سنة ١٤٩٤م براوية مشابهة لرواية أرنولد فون هارف جاء فيها أن "كل شوارع مدينة القاهرة الرئيسية منها والشوارع العامة والدروج يتم غلقها كل مساء فى الساعة الثانية، ولا يعاد فتحها إلا مع بزوغ الفجر. ويعد هذا من التدابير الفعالة للحفاظ على الأمن والأمان فى ربوع القاهرة. ويفضى ذلك إلى انعدام السرقات ليلاً، لأنه

---

(١) .Bauwens – Préaux, p.18; Dopp, p.8.

(٢) Bauwens- Préaux, p.19; Dopp, p.8.

(٣) أشار إلى ذلك عديد من الرحالة انظر: Bauwens- Préaux, p.19; Dopp, p.8; Felix Fabri, t. II, pp.404-405, 530; Dopp, Francesco Suriano, p.30.

(٤) عن ذلك انظر: Bauwens- Préaux, p.19; Dopp, p.8; Dopp, Arnold Von Harff, P.40; Letts, Engl. Trans., p.109; Dopp, Francesco suriano, p.28.

(٥) جاء فى هذا المصدر "Ony Compte 30000 Rues et passages" انظر: Dopp, Jean Aerts, t. xxvi, p. 117.

بفضل تلك الاحتياطات سوف لا يتمكن اللص من الإفلات من إلقاء القبض عليه[١].

أما الرحالة **روبرتو دا سنسيفرينو** الذى ولد فى ميلانو سنة ١٤١٧م، وزار القاهرة سنة ١٤٥٨م، حيث أقام فيها من ٢٩ أغسطس إلى ٦ سبتمبر[٢]. ذكر أن مساحة القاهرة تبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف مساحة ميلانو؛ وذكر أن أحد الرحالة زار المدينتين وأكد له أنها أكبر من ميلانو ستة أضعاف. ويذكر روبرتو أن سكانها أكثر من ميلانو والبندقية وروما وفلورنسا معا، بل حتى يمكن إضافة مدينتين إيطاليتين إلى المدن سالفة الذكر.

ولاحظ روبرتو أن شوارع القاهرة الرئيسية جميلة للغاية، ويتوافر فيها كافة الاحتياجات. وشهد أن تلك الشوارع أكثر رونق وجمالا من شوارع إيطاليا[٣].

هذا بينما اكتفى **دومينكو تريفيزان** بالقول إنه "فى كل الشوارع التى اجتزناها للوصول إلى مسكننا، كنا نجد جمعا غفيرا من الناس لا يصدقه عقل. البعض يمتطى فرسا أو حمارا، والبعض الآخر يسير على الأقدام"[٤].

- **الطباخون والخبازون:**

بعد حديثه عن شوارع القاهرة، تحدث **أرنولد** عن المطابخ والمخابز، فأورد أن لكل شارع له طباخه الخاص واثنين من الخبازين لسد حاجيات سكانه.

---

(١) Dopp. Francesco suriano,p.28; Le Caire vu par les Voyageurs occidentaux du moyen Age, Paris, 1953, t.xxvi,p. 107. وللتفاصيل انظر: فايز نجيب إسكندر: مصر فى كتابات الرحالة الروس، ص ٢٠٧-٢٠٨، حاشية ٥٩-٦٠-٦١ بحث منشور فى الجزء الرابع من كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى- القاهرة ٢٠٠٧.

(٢) Dopp, Roberto Da Sanseverino, p. 95.

(٣) Dopp, Roberto, pp. 98-99.

(٤) Trevisan, p. 181.

وبالتالى نجد فى مدينة القاهرة أربعة وعشرين ألف طباخ وثمانية وأربعين ألف خباز[١]. وفى هذا الإحصاء مبالغة فجة.

بعد هذه الأرقام المبالغ فيها، يذكر أرنولد أنه يوجد، فى واقع الأمر، كثير من الشوارع بلا طباخ ولا خباز؛ لكن عوضا عن ذلك، هناك شوارع عديدة لا حصر لها بها مائة أو مائة وخمسين طباخا. وأرجع كثرة الطباخين على أن أكثر الناس لا يطبخون فى منازلهم إلا نادرا. وفيما يتعلق بالخبازين، فسبب كثرتهم هم أيضا يعود إلى أن سكان العاصمة اعتادوا على أكل الخبز ساخنا، فور خروجه لتوه من المخبز. ويعلق أرنولد على ذلك بالقول إن حرارة الشمس تجعل الخبز غير الساخن صلبا كالحجر، وبالتالى يصبح غير قابل للأكل؛ وذلك فى حال خروجه من المخبز فى فترة لا تتجاوز الثلاث ساعات[٢].

ولاحظ أرنولد أن كل هؤلاء الطباخين يقومون بإعداد الوجبات الغذائية فى الشارع. وأن العديد منهم يحمل المواقد فوق رأسه، واضعاً فيها الدجاج المسلوق، والبازلاء، وبعض المأكولات المطهية الأخرى، وينتقلون من شارع إلى آخر لبيع مأكولاتهم المطهية. كما سجل فى مصدره أنهم يستخدمون روث الجمال لطهى الأطعمة، وأرجع سبب ذلك إلى قلة الأخشاب فى البلاد، وأن مصر تستورد الأخشاب من الخارج، وذلك من كريت Candia وقبرص، وكانت تباع بالرطل. ولا يوجد فى مصر والبلدان العربية أخشاب سوى خشب النخيل، وهى لا تصلح على الإطلاق للبناء[٣].

وكان الطهاة يقطعون كميات كبيرة من الدجاج المسلوق أو المحمر إلى أجزاء ويبيعونها بالقطعة. وأرجع أرنولد ذلك إلى فكاهة طريفة مفادها إن بالقاهرة ديكا واحدا فقط، لديه تحت إمرته أربع وعشرين دجاجة تفرخ إثنى عشرة مرة فى العام، وبالتالى تنتج كل عام ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف

---

(١) E. von Groote, p.91; Letts. p. 109; Dopp. pp. 40; Bleser, p. 87.

(٢) E. von Groote, p.91; Letts, p. 109; Dopp. pp. 40-41; Bleser. p. 87.

(٣) E. von Groote, p.91; Letts, pp. 109-110: Dopp, 41; Bleser. 87.

كتكوت. لذا فسكان القاهرة يأكلون الدجاج بكثرة. كما أن هناك طهاة يجهــزون بسرعة لحم الجمال وهو لحم مذاقه طيب للغاية. مما يؤكد أنه أعجبته كثيرا حين أقبل على أكلها لأول مرة فى حياته، ويطهون كذلك كميات كبيرة مــن لحــوم الضأن. والملاحظ أن تلك الخرفان لها ذيول عريضة وطويلة؛ أما آذانها، فهــى طويلة للغاية. وحرص على رسم أحد الخرفان فى مصنفه ليوضح شكله[١].



رسم رقم (٥) خروف سمين بذيل عريض وطويل وأذنين طويلين للغاية

هذا وقد تحدث العديد من الرحالة عن الطباخين والمطابخ المنتشرة فــى ربوع القاهرة مع التفاوت فى تقدير عددها وعدد الذين يحترفون مهنة الطباخة. فقد أورد **فيلكس فابرى** أن المصريين يحجمون عن تناول طعامهم فى منازلهم، ويفضلون شراء حاجياتهم – من مأكل على وجه الخصوص – مــن المطــابخ والطباخين الذين يتجولون فى الشوارع والمحلات فى الأسواق. وأرجع ذلك إلى عدة أسباب منها أن الأخشاب غير متوفرة فى مصر، لذا تباع بالميزان وبــثمن باهظ؛ وأن العاملين فى المطاعم يحرصون على نظافتهم، لذا حين يقبل علــيهم أعداد هائلة من المشترين، وبالتالى تزداد مكاسبهم المادية وكذا شهرتهم. وسجل أن النظافة لا تتوفر على الدوام فى المنازل؛ وثالث الأسباب إدعاء فــابرى أن المصريين يحتقرون المرأة –وهذا ادعاء باطل– وبالتالى لا يتنــاولون طعــام أعدته امرأة. وإذا أجبروا على تناول الطعام فى منزلهم، فهم يعدونه بأنفسهم.

(١) E. von Groote, p.93; Letts, pp. 110-111; Dopp, 41; Bleser, 87-88.

ويسجل فابرى عدد المطابخ الخاصة فى القاهرة بأكثر من أثنى عشــر ألفا. وذكر **برنار** –الموافق له– نفس العدد[١].

وأشار فابرى أيضا إلى أن الطباخين الصــغار لا منــزل ولا مطــبخ، وعوضا عن ذلك لديهم مائدة بقوائم ثلاث، تغطى من الــداخل بطمــى النيــل، ومملوءة بفحم الخشب المشتعل، وتوضع فوقها الأوانى لطهــى كافــة أنــواع الأطعمة، وكذا اللحوم المشوية التى يتم شيها على النيران. ويجوب هؤلاء الباعة الفقراء الجائلين ذهابا وإيابا كافة الشوارع المحيطة بهم، حاملين على رؤوســهم الموائد سالفة الذكر، وينادون على الأطعمة التى أعدوها للبيع من لحوم وأسماك ودواجن.

وحين يسمعهم الناس يشترون منهم ما يرغبون من طعام. أما الفقــراء فيجلسون فى جانب الطريق لتناول طعامهم الذى اشتروه منهم لرخصة عن غيره عما يباع فى محلات الطبيخ. وحسب قول فابرى، يبلغ عدد هــؤلاء الطبــاخين الجوالين فى القاهرة بعدة آلاف[٢].

أما الرحالة فرسكوبالدى فقد سجل أن فى مدينة القاهرة أعداداً لا حصر لها من الطباخين، يعدون الأطعمة ليل نهار فى الشوارع. ويستخدمون لإعدادها قدوراً نحاسية بالغة الضخامة حيث يعدون لحوما طيبة المذاق للغاية. والملاحظ أن الثرى والفقير لا يقدم على تناول طعامه فى منزلهن لكنه يفضل شراء طعامه من المطاعم والمطابخ. وكثيرا ما يتناول القاهريون طعامهم فى الشوارع وهــم يفترشون آنذاك الأرض واضعين الطعام فى أوان وسطهم، ويأكلون يجلسون فى وضع القرفصاء حوله أو بثنى أرحلهم، أو على عظم مؤخر القدم.

(١) Fabri, t. II, p.568; t. III, p.928; Bernard, p.60.

(٢) Fabri, t. II, p.569; t. III. P. 9 28; Dopp, Tafur, p.90. انظــر أيضــا: المقريــزى: الخطط، جـ٣، ص١٦٢

ونلاحظ أن الرحالة **جان ثونو** ربط المخابز والأطعمة بندرة الأخشاب، إذ سجل افتقار مصر إلى الأخشاب[١]، رغم كونها ضرورية للمخابز وطهي اللحوم والأطعمة. وتلبية لحاجياتهم سالفة الذكر، يستخدم المصريون عوضاً عن نقص الأخشاب: جريد النخيل والطين المخلوط بالقش وروث الحيوانات. وفيما يتعلق بطهي الأطعمة الشعبية، ذكر ثونو أنه يتم إعدادها في الشوارع[٢]، وبالتالي انتابه هو وزملاؤه الرعب من تناولها بسبب تعرضها للتلوث بفعل كثرة الغبار والذباب. كما لاحظ أن السكان لا يكفون عن الأكل طوال النهار سواء في الذهاب أم في الإياب[٣]؛ وسجل الارتفاع البالغ في أسعار النبيذ، إذ بلغ ثمن الزجاجة ثلاثين دينارا أشرفيا، وأرجع سبب ذلك على قلة المعروض منه، لكونه محرما طبقا للشريعة الإسلامية؛ ومع ذلك فإنهم يشربونه بشراهة حين يصنعونه. [٤]

- **أرنولد والتفريخ الصناعي:**

وفي حديث **أرنولد** عن التفريخ الصناعي، قارن بين كثرة كميات الدجاج المسلوق والمحمر لدى الطهاة وبين التفريخ، وذلك بتسجيله مزحة طريفة قائلا إن بالقاهرة ديكا واحداً فقط هو السلطان المملوكي، لديه تحت إمرته أربع وعشرين دجاجة، تفرخ إثنى عشرة مرة في العام. فتنتج في العام ما بين ثلاثة إلى أربعة

(١) Dopp, Frescobaldi, p. 135.

(٢) أورد الرحالة الفلورنسي ليونردو فرسكوبلدي Lionardo Frescobaldi الذي زار القاهرة سنة ١٣٨٤م أنه رأى في تلك المدينة أعداداً كبيرة للغاية من الطباخين، يطهون أطعمتهم – ليل نهار، في الشارع، وفي العراء – وذلك داخل قدور نحاسية جميلة، حيث يعدون لحوماً ممتازة تمتاز بحلاوة مذاقها. انظر: Dopp., Le Caire, 1950, t. XXIII, p. 135. هذا وقد أورد فيلكس فابري وبريدنبخ رفيقه أن عدد الطباخين في القاهرة بلغ تقريبا اثني عشر ألفا كما قيل لهم. انظر: Bredenbach, p. 60; Fabri, pp. 568, 928. بينما أورد دومنيكو تريفيزان أن نسبة المطابخ بالقاهرة اثنين من كل عشرة دكاكين. انظر: Relation, p. 210.

(٣) Thenaud, p. 47; Lionardo Frescobaldi, Trad. Dopp, t. XXIII, p. 135.

(٤) Thenaud, p. 47.

آلاف كتكوت –أي فرخ– لذا فسكان القاهرة يأكلون دجاجاً بكثرة نتيجة عملية التفريخ الصناعي؛ إضافة إلى التفريخ الطبيعي المعروف في كافة أنحاء مصر، والذي يتم بترقيد الطيور كافة للتفريخ بطريقة التدفئة الطبيعية.

بعد ذلك تناول أرنولد بالشرح عملية التفريخ الصناعي قائلا إنه يتم إعداد أفران لهذا الغرض، وهذه الأفران بها أعداد من الثقوب المستديرة كل ثقب منها على شكل كأس، حيث يتم وضع البيض في تلك الكؤوس. وعقب ذلك تغطى كل مساحة أفران التفريخ بكاملها بالروث، بعدها يتم إشعال نار هادئة للغاية أسفلها، وبفعل هذه النار الهادئة، والروث المشتعل، وطقس البلاد الحار، يفقس البيض بعد انقضاء ثلاثة أسابيع. وبعد فقس البيض، يتم تجميع الكتاكيت في قبو مثقب لإطعامها، وبعد ذلك يتم بيعها. وقد رأى أحد التجار وهو يقوم بذلك، إذ ذكر أن هذا التاجر كان يكدس الكتاكيت في مكيال، ثم يضغط عليهم بيديه كأنه يبيع مكيال قمح حتى إنه ظهر خارج المكيال راس كتكوت تارة، وجناح تارة ثانية، ورجل أو رجلين تارة ثالثة. ولاحظ أرنولد بعينيه الثاقبتين أن سعة أحد المكاييل بلغ عشرين كتكوتا بينما في آخر بلغ أربع وعشرين[١].

على أية حال، فإن طريقة التفريخ الصناعي سالفة الذكر توارثها المصريون عبر الأجيال، إذ أكدت الأبحاث العلمية أنها كانت شائعة عند قدماء المصريين[٢]، بينما لم يسمع عنها الأوربيون إلا بعد زيارتهم لمصر، فجذبت انتباه جميع هؤلاء الرحالة كأنها أحد اختراعاتهم الفذة، فحرص بعضهم على وصف كيفية تشغيل معامل التفريخ، منهم الرحالة الكريتي **إيمانويل بيلوتي** Emmanuel Piloti (١٣٩٨-١٤٤١م) والذي أقام في مصر إثنتين وأربعين عاما –أي أنه تمصر– وكان له وكالة تجارية، وجاب ربوع مصر وكتب مصنفاً قيما عنها بعنوان "**مصر**

(١) E.von Grotte, 92; Letts, p.110; Dopp, p.41; Bleser, pp.87-88. وقد أشار إلى أفران التفريخ هذه، عديد من الرحالة الأوروبيين. انظر: Ludolph von Suchem's Description of the Holy Land. Tans. By A. Stewart 1895, p.67; Leo Africanus, the History and Description of Africa, 1895, p.883.

(٢) وليم نظير: الثروة الحيوانية عند قدماء المصريين –القاهرة ١٩٦١م– ص١٦٩.

فى أوائل القرن الخامس عشر". ذكر بيلوتى أن معامل التفريخ كانت موجودة بكثرة فى المنطقة الواقعة بين القاهرة وبابيلون فتلك المنطقة كانت عامرة بمعامل التفريخ. إذ كان يتم وضع حوالى سبعة آلاف إلى ثمانية آلاف بيضة طازجة، يتم جمعها من ربوع المدينة، وذلك فى أفران مخصصة لذلك. ويستخدم روث الحيوانات فى عملية التدفئة. وبعد فقس الكتاكيت يتم بيعها. ويعيش على هذه الحرفة العديد من الأسر، بعد بيع الكتاكيت فى نفس المكاييل المخصصة لبيع السوائل والغلال[١]. والملاحظ أن أرنولد كان أكثر دقة وتفصيلا فى كيفية بيع الكتاكيت، حتى إنه حدد اختلاف ما يحويه هذا المكيال من الكتاكيت.

أما **فيلكس فابرى** فيذكر أنه توجه إلى المنطقة الواقعة بين القاهرة وبابيلون –أى مصر القديمة– وبصحبته مجموعة من الرحالة الألمان، هادفين من ذلك زيارة أحد معامل التفريخ. إلا أنه كان مغلقا لأن الوقت لم يكن الشهر المناسب للتفريخ – فعلم أن شهور التفريخ المناسبة هى مايو ويونيو ويوليو فقط– بينما كان فابرى ورفيقه **بارنار** فى زيارة لمصر فى الفترة من ٣ سبتمبر إلى ٥ نوفمبر سنة ١٤٨٣م، حينئذ التقوا بأحد المسنين من المسلمين الذى شرح لهم كيفية هذه الصناعة فقال لهم إن النساء يحضرن البيض الجيد والطازج إلى معمل التفريخ الذى بدوره يحرص على جمع العدد اللازم لتشغيل معمله والذى يتسع لعدة آلاف من البيض. وكان يتم استبعاد البيض غير الصالح للتفريخ[٢].

وعلم فابرى أن المعمل يتكون من طابقين: فى الطابق العلوى كان عامل التفريخ يضع البيض فى فتحات صغيرة مستديرة الشكل، وكان يوضع البيض بين كمية من القش مساوية الكمية التى يرقد عليها الدجاج، ويغطى البيض جيدا بروث الحيوانات لكونه يؤدى على رفع درجة حرارته، ويتم وضع البيض فوق تلك الأفران. وعلم أيضا أنه فى الطابق السفلى من الفرن كان يتم إشعال نار هادئة،

(١) Piloti, L'egypte Au Commencement Du Quinzième Siècle, Le Caire, 1950, pp. 38-40; Dopp, Piloti, pp. 154-155.

(٢) Fabri, t. II, pp.479-480; t. III, pp.924-925.

منتظمة، ومتدرجة فى الحرارة، وبفعل تلك النيران والروث، وجو القاهرة بشدة حرارته آنذاك؛ كل ذلك كان يعمل على فقس البيض، فتخرج الكتاكيت إلى النور. وتتم عملية التفريخ هذه فى فترة تتراوح ما بين إثنتى عشر وخمسة عشر يوما. بعد ذلك، يقوم صاحب المعمل بتسليم الكتاكيت إلى أصحابها، مقابل أجر متفق عليه مسبقاً[١].

وينفرد فابرى بتزويدنا بمعلومات طريفة مفادها أن معامل التفريخ لا تعمل إلا ثلاثة أشهر فى السنة وهى شهور مايو ويونيو ويوليو كما سبق القول، وتغلق أبوابها تسعة أشهر[٢]. ولاحظ فابرى ورفيقه برنار أن الكتاكيت تجرى خلف صاحبها كما تجرى وراء الدجاج تماما. فصاحبها هذا يمسك بيده عصا طويلة بحيث تلامس الأرض، وقد ثبت فى نهايتها كمية من ريش الطيور، هادفاً من ذلك إثارة التراب الموجود فوق الأرض، وبالتالى تبحث الكتاكيت عن ما بداخله من غذاء[٣]. وقد جنح فابرى على المبالغة حين قال إن عامل التفريخ كان يقود أكثر من خمسمائة كتكوت فى طريقه إلى السوق، حيث يصل إليه هو وكتاكيته فى أمان، دون أن يهرب منه واحداً حتى إذا سار وسط الناس أو الدواب[٤].

هكذا زودنا فابرى بوصف مفصل ودقيق لعملية التفريخ التى كانت تعد غريبة على الغرب الأوروبى آنذاك بسبب طقسه البارد.

(١) Bernard De Breydenbach, p.61; Bauwens- Préaux, pp. 54-56; Dopp, Francesco Suriano, p.30; Fabri, t. II, pp.479-480; t. III, p.924-925. والجدير بالذكر أن رواية الرحالة الطبيب عبد اللطيف البغدادى تعد أكمل رواية على الإطلاق عن عملية التفريخ الصناعى. ففى الفصل الثالث وعنوانه "**فيما يختص به من الحيوان**" خصص ثلثه تقريبا للحديث بإسهاب عن التفريخ. أنظر: كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر –تحقيق عبد الرحمن عبد الله الشيخ– القاهرة ١٩٩٨م، ص٨٠–٨٣.

(٢) Fabri, t.II, p.480; t.III, p.925.

(٣) Fabri, t.II, p.481; t.III, p.925; Bernard, p.61.

(٤) Fabri, t.II, p.481; t.III, pp.924-925.

أما الرحالة **دومنيكو تريفيزان**، فقد أورد أن القاهرة تتمتع بمعروض سلعى وفير من الدواجن، وبالتالى تعد أسعارها رخيصة. وتحدث بإيجاز شديد عن عملية التفريخ بالقول إنه يتم فقس البيض بالطريقة التالية: يوضع ثلاثة أو أربعة آلاف بيضة فى فرن شديد خصيصاً لعملية التفريخ. ويشعلون داخل هذا الفرن ناراً هادئة بحيث تجعل البيض يفقس وتخرج منه الكتاكيت. وانفرد بذكر أن السلطان المملوكى خصصت له يوميا خمسمائة دجاجة، وكذا لحوم أخرى متنوعة[١].

• كثرة السقائين والجمال:

عقب حديثه عن صناعة الدواجن –أى عملية التفريخ آنـــذاك– تحـدث **أرنولد** ثانية عن أحوال الشوارع فى العاصمة المصرية، فـــأورد أن الشـــوارع العامة والكثيرة الارتياد كان ينبغى رشها بالماء ثلاث مرات يوميا. وأرجع سبب ذلك إلى شدة الحرارة، إضافة إلى كثرة الغبار؛ لكونها شوارع ترابيـــة وغيـــر مرصوفة. فإذا لم ترش بالماء، يصاب الناس بالأختناق وضيق التـــنفس بســـبب كثرة الغبار فى الجو.

على أية حال، فكل هذه المياه اللازمة لرش الشوارع وكذا المياه اللازمة للاستخدام المنزلى سواء لغسيل الملابس والأوانى المنزلية والتنظيف وأيضا مياه الشرب، يتم جلبها من نهر النيل على ظهور الجمال.

ويسجل أرنولد أنه علم أن عدد الجمال بلغ أكثر من عشرين ألف جمل، تستخدم فقط لجلب المياه اللازمة للمدينة طوال النهار. وتنقل هذه المياه من نهر النيل إلى المدينة فى قرب مصنوعة من جلد الماعز، وتتدلى على جـــانبى كـــل جمل. إضافة على ما تقدم، كان هناك عشرة آلاف رجل على الأقـــل، مهمـــتهم الوحيدة طوال النهار جلب مياه النيل وحملها فوق ظهورهم فى قرب مصـــنوعة

(١) Trevisan, pp. 210-211.

أيضا من جلد الماعز، لبيعها فى أوان صغيرة، ثمن كل واحد منها درهم نحاسى Denier، حتى يتسنى للناس الارتواء من شدة الحرارة. [١]

هذا وقد أحصى **جان ثونو** عدد السقائين بمائة ألف– وهو رقم مبالغ فيه– يحملون على رقابهم قرب ماء مصنوعة من جلد الماعز، ويقومون ببيع هذه المياه؛ كما سجل خمسين ألف جمل تحمل المياه إلى المنازل وكذا الشوارع؛ وذلك لريها فى المساء والصباح على حد سواء لترطيب المدينة من شدة حرارة الصيف. وأرجع سبب ذلك على أن المدينة ليست مبلطة وممهدة.

على أية حال، لم يجنح **جوس فان غستل** إلى المبالغة الفجة التى سجلها جان ثونو، إذ أورد فى سفر رحلته "ولأنه لا يوجد داخل مدينة القـــاهرة ميـــاه صالحة للشرب، أو بمعنى أدق القليل منها يتم سحبه من نهر النيل، لذا ينتشر فى العاصمة المصرية عشرة آلاف جمل مهمتهم الوحيدة نقل الماء إلى المدينة. [٢]

كما ذكر جوس فان غستل أنه لا يوجد داخل مدينة القاهرة مياه صالحة للشرب، أو بمعنى أدق القليل منها يتم سحبه من نهر النيل، لـــذا ينتشـــر فـــى العاصمة المصرية عشرة آلاف جمل[٣] مهمتهم الوحيدة نقل الماء إلى المدينـــة. ويتقاضى السلطان عن كل جمل مديناً[٤] Maydin واحداً يومياً. علماً بأن المدين يساوى ثلاثة سو Sou فلمنكى[٥] Flamands.

(١) E.von Grotte, p.95; Letts, p.111; Dopp, p.41; Bieser, 88-89. والملاحظ أن الرحالة جوس دى دينو (الذى زار مصر سنة ١٣٨٤م) – رفيق فرسكوبلدى – ذكر أن عـــدد الجمال فى القاهرة أكثر من أربعين ألف جمل. وانفرد بذكر أن كل جمل يجلب المـــاء، يتم تسجيله فى سجلات خاصة بذلك. انظر: Dopp, Gucci Di Dino, p. 144.

(٢) Bauwens – Préaux, p.19;Dopp, p.8.

(٣) Bauwens – Préaux, p.19;Dopp, p.8.

(٤) "المدين" عملة فضية صغيرة. ومما يذكر أن الدينار الأشرفى الذهبى الذى سكه السلطان الأشرف قايتباى يساوى ٢٦ من تلك العملة الفضية. (انظر: Dopp, Josse De Ghistele, p.8, n.2.) و ٢٥ مدين يساوى دوكة واحدة. انظر: Bauwens- Préaux, p.19, n.29.

(٥) Bauwens – Préaux, p.19; Dopp, pp.8-9

• **أزيار الماء:**

وينفرد **أرنولد** بتسجيل ما اتسم به بعض أثرياء المسلمين من تقوى والبحث عن محبة الله ورضاه، إذ يذكر أنهم أقاموا أزياراً ضخمة من الفخار، وضعت فى أماكن متفرقة من المدينة، وملأت بالماء حتى يتمكن عابر السبيل سواء من المسيحيين أو اليهود أو المسلمين دون تفرقة بينهم، للشرب منها محبة فى الله؛ وإلا اختنق الكثيرون من شدة الحرارة[١].

• **كثرة الدواب وأسبابه:**

وأورد **أرنولد** أن فى الشوارع ذات الميادين العامة، شاهد أعداداً لا حصر لها من الحمير والخيول والجمال والبغال التى تنتظر من يستأجرها هربا من شدة الحرارة. وبالتالى يمتطيها الرجال من منزل أو شارع إلى آخر. ولكن حرم على المسيحيين واليهود إمتطاء الدواب؛ ومع ذلك، سجل أرنولد أنه امتطى حصاناً ليجوب به ربوع القاهرة برفقة المملوكين الألمانيين، وسبب مخالفته تلك أنه أرتدى زى ملابس المماليك فى كل مرة استخدم فيها دابته، وبالتالى لم يعرف أحد أنه يدين بالمسيحية[٢].

• **وصف المنازل:**

وينتقل أرنولد بعد ذلك إلى وصف منازل القاهرة فيقول إنها على وجه العموم دميمة الشكل من الخارج، وبنائها ردئ؛ إلا أنها من الداخل فهى بالغة الجمال ورائعة، كما أنها تتميز بزخرفة ذهبية قيمة حتى إن أرضيتها مبلطة بأحجار رخامية رائعة من جميع الألوان التى تختلط بعضها ببعض فى تناسق جميل، بحيث تجمع أجمل أشكال الورود فى رسوم معبرة للغاية، حتى إن المرء يمكنه رؤية صورة وجهه فى تلك الأرضية اللامعة.

(١) E.von Groote, p.96; Letts, p.111; Dopp, p.42; Bleser, p.89.

(٢) E.von Groote, p.97; Letts, p.111; Dopp, p.42; Bleser, p.89.

بالإضافة إلى ما تقدم، فإن الأرضية مغطاة بسجاد جميل وهو عبارة عن أقمشة ثمينة من الحرير المطرز. لذلك، عند الدخول إلى منازلهم، كان ينبغى عليهم خلع أحذيتهم أو قباقيبهم؛ بسبب جمال بلاط أرضية المنزل. بعد ذلك، يجلسون على السجاجيد تماما كما يفعل الترزى فى البلدان الأوروبية. ويأكلون ويشربون ويلعبون ويتحدثون معاً، يفعلون كل هذا بلا ضجيج. ولا يعرفون النوم على أسرة. بل لا ينامون إلا على السجاجيد سالفة الذكر.

وبعينيه الثاقبتين لاحظ أن القاهرى كلما ازداد ثراء، كلما ازداد فرشه الذى ينام عليه قيمة. وسجل أرنولد أيضا أن عامة الناس ينامون فوق أسطح المنازل على الحصير، أو أمام منازلهم على ألواح خشبية. كما أن الرجال والنساء ينامون سويا، ولا يبدلون ثيابهم إلا حين ارتداء قمصان بيضاء فقط قبل النوم[١].

هذا وقد ذكر **تريفيزان** معلومة جديدة جاء فيها أن القاهريين تم الاتفاق بينهم على ترك مصباح يضئ طوال الليل على باب أحد المنازل؛ وذلك لتأمين المنازل الأربعة أو الخمسة المتفق أصحابها على ذلك[٢].

• **الدراسة التحليلية النقدية المقارنة:**

مما تقدمن نخلص أن أرنولد زودنا بصورة تكاد تكون كاملة عن الشكل الخارجى للمنازل الذى لم يحظ بمديحه؛ أما الشكل الداخلى، فقد جذب انتباهه وانهمك فى وصفه بالتفصيل فاق غيره من الرحالة.

هذا بينما كان **جوس فان غستل** أقل إسهابا من أرنولد، إذ أورد أن معظم منازل القاهرة كانت ذات أسقف منبسطة، وعادة يوجد فى السقف فتحة كبيرة. ونوافذ تلك المنازل كبيرة أيضا، مثبت فيها إطار حديدى يتسلل من خلاله نسيم عليل ونقى وافد من السماء. وبسبب الارتفاع الشديد فى درجة الحرارة،

(١) E.von Groote, p.97; Letts, p.111-112; Dopp, p.42; Bleser, pp.89-90.

(٢) Trevisan, p.211.

وتطلب ذلك ضرورة رش المنازل والشوارع ثلاث أو أربع مرات يوميا بالمياه، وإلا استحال سكناها أو التجوال فى الشوارع بسبب شدة تلك الحرارة؛ فبدون ذلك، لا يستطيع المرء أن يقيم داخل منزله ولا السير فى الشوارع[1].

أما **فيلكس فابرى** (١٤٨٣م) Félix Fabri، فقد زودنا بمقارنة طريفة بين منازل الغرب الأوربى ومنازل مصر. وكان فطنا للغاية حين أرجع الاختلاف إلى الظروف المناخية؛ إذ أورد أن "هذه المنازل تختلف فى طرازها المعمارى عن منازلنا، لأنها لم تبن لحماية قاطنيها من الأمطار والثلج والجليد أو البرد كحال طقس بلداننا، تلك الظروف المناخية التى لا تعرفها مصر؛ لذا فمنازل مصر بنيت فى الأساس للاحتماء من حرارة الشمس، وكذا للحيلولة دون تعرضها لهجمات اللصوص وقطاع الطرق". كما أضاف على رواية غستل أن "بأعلاها جدارا للحيلولة دون دخول أشعة الشمس داخل المنزل فتشتد الحرارة. بعد ذلك تحدث فابرى عن طريقة صنع الطوب اللبن".[2]

هذا وقد اكتفى **جان ثونو** بالقول إن مدينة القاهرة تطل على نهر النيل، وهى غير محاطة بأسوار ويبلغ عدد منازلها ما بين ستمائة وسبعمائة. ويتوفر فيها بكثرة اللحوم والأسماك وأشجار النخيل والقمح والنبيذ ومنتجات استهلاكية أخرى عديدة لسد حاجيات السكان. ومنازلها – كحال منازل بقية المدن المصرية – لها شرفات ومشيدة بالطوب اللبن وسقفها مكون من سعف النخيل المغطى بالقش.[3]

• **المرأة زمن المماليك الجراكسة:**

وعن المرأة القاهرية زمن المماليك الجراكسة، أورد **أرنولد** أن الإسلام أباح تعدد الزوجات، واشترط إقامة العدل بينهن؛ هذا طالما بإمكان الزوج إطعامهن. وحسب روايته، فإن الشريعة الإسلامية تقضى بان يدفع يومياً لكل

(١) Bauwens- Préaux, p.20; Dopp, Joose, p.9.

(٢) للتفاصيل انظر: Voyage en Egypte, t. II, pp. 528-529.

(٣) Thenaud, p. 30.

زوجة من زوجاته ثلاثة مدين[1] Medines مقابل الاستحمام ووجبة العشاء. وفى الصباح، يتناول الزوج طعام الإفطار على مائدته بصحبة زوجاته. كما كان الزوج مكلفا أن يوفر لكل زوجة من زوجاته أحد شباب العبيد السود سعيا على راحتهن وخدمتهن. وبالتالى، عليه شراء هؤلاء العبيد من أسواق النخاسة[2].

وواصل أرنولد سرده لإيضاح العلاقة بين الزوج وزوجته قائلا إذا تقاعس الزوج عن الوفاء بالتزاماته سالفة الذكر تجاه إحدى زوجاته، وتهاون فى تنفيذ حقوقها، وأراد الزواج بأخيرات لا يستطيع إطعامهن، عليها أن تلجأ إلى القاضى لرفع شكواها. فإذا ثبت صدقها، يتم جلد الزوج فى الحال؛ إضافة إلى ذلك من حق الزوجة طلب الطلاق، وتأخذ أيضا كافة المنقولات التى أعدتها للزواج. ويعترف أرنولد صراحة -كغيره من الرحالة الأوربيين أمثال فيلكس فابرى- بأن المرأة المسلمة تتمتع بحقوق أكثر وأفضل من المرأة الأوروبية، وأرجع ذلك إلى أن المرأة المسلمة تتمتع بإعفاء خاص من الضرائب المفروضة فى كافة المدن والقرى؛ أما الرجال فعليهم دفع ضرائب على الأبقار والحمير والخيول وكافة أنواع الحيوانات والبضائع.

ومما يذكر أن الرجل من عامة الناس كان لديه زوجة واحدة فقط؛ هذا بينما الرجال المتزوج من عدد كبير من الزوجات، يتوجب عليه إبقاء السلام بينهن للحيلولة دون اندلاع مشاجرات تقلق راحته وباله.

ويسجل أرنولد أنه يندر حدوث تلك المعارك بينهن مما يبعث على الغرابة غير المتوقعة بالنسبة إليه[3].

ويحسب لأرنولد أنه أورد فى مصدره رسماً توضيحيا ذات أهمية كبيرة للزى التقليدى للنساء زمن الناصر أبى السعادات محمد بن قايتباى

(١) الدوكة البندقية تساوى ٢٦ مديناً. أنظر: Letts, p.112, Dopp, p.42; Bleser, p.90.

(٢) E.von Groote, p.96; Letts, p.112; Dopp, pp.42-43; Bleser, p.90.

(٣) E.von Grotte, p.97; Letts, p.112; Dopp, p.43; Bleser, p.90.

(٩٠١-٩٠٤هـ/ ١٤٩٦- ١٤٩٨م)، ويبدو الطربوش فوق رأس امرأة تمتطى حماراً يقوده غلامها، يقوم بمهمة المكارى. وهذا الغلام يتميز بالبساطة فى الملبس، كما يوضحه أنه عارى القدمين وفى يده اليمنى عصاته المستخدمة ليسوق بها الحمار، وفوق رأس هذا الغلام عمامه تلف حول طاقية. أما السيدة التى من المؤكد أن زوجها كان مقتدراً، فطربوشها يشبه القبعة، وتغطيه عصابة فضفاضة طويلة لا تقل عن ثلاثة أذرع(١)، وترتدى ملابسها التقليدية(٢).



رسم رقم (٦) إمرأة بطربوش فوق رأسها، تمتطى حماراً يقوده غلامها

كما يبدو على نساء ذلك العصر التدين، استخلصنا ذلك من إمساك امرأة مسبحة فى اليد اليسرى، وفوق الوجه وضع الحجاب وكان أشبه بشغل الدنتلة(٣).

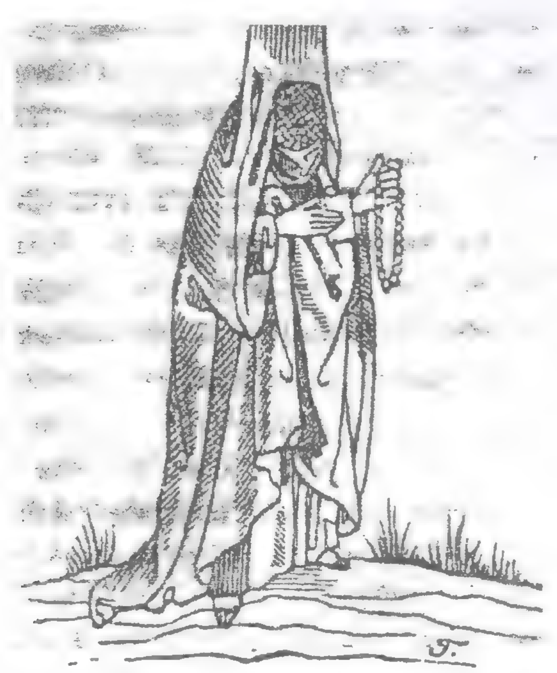
---

(١) أشهر أنواع الذراع، الذارع الهاشمية وطولها ٦٤ سنتيمترا. أنظر: المعجم الوجيز – القاهرة ٢٠٠٥، ص٢٤٤.

(٢) أنظر الرسم الثانى أسفل فى: E.von Groote, p.107; Letts, p.125; Bleser, p.103. ويؤخذ على دوب Dopp أنه لم يرد فى ترجمته أى رسم من رسوم أرنولد العديدة.

(٣) أنظر الرسم الأول أعلى فى: E.von Groote, p.107; Letts, p.125; Bleser, p.103. وللتفاصيل أنظر: E.von Groote, pp.106-107; Letts, pp.124-125;Dopp, pp.47-48; Bleser, pp.102-103; Jean Aerts. p.114. والملاحظ أن فى النص أشار أرنولد إلى أن =

ويحسب لأرنولد أيضا أنه عقد مقارنة بين ملابس المرأة المملوكية وملابس المرأة الأوروبية(١).



رسم رقم (٧) إمرأة متدينة ممسكة بمسبحة فى يدها اليسرى، وفوق الوجه وضع الحجاب

هكذا زودنا أرنولد بوصف تفصيلى عن المرأة. ويحسب له تزويد مصنفه بلوحتين ناطقتين: الأولى توضح تقواها، والثانية أسفل الأولى تركز على حشمتها فى ملابسها، والذى يتفق مع صحيح الدين. كما اعترف صراحة بأن المرأة المصرية أحسن حال من المرأة الأوروبية، وعقد مقارنة بين ملابس المرأة المملوكية وملابس المرأة الأوروبية.

= النساء كان فوق رؤوسهن شيئاً طويلا على هيئة القدح أو الكأس الكبير، ملفوفاً بقماش ثمين وذو زخارف بالغة الجمال؛ هذا بينما فى الرسم سالف الذكر يبدو خاليا من الرسوم والزخارف. وقد استخلصنا أن ما فوق راس المرأة يشبه الطربوش بعد التدقيق فى الرسم التوضيحى.

(١) E.von Groote, p.107; Letts, p.125; Bleser, p.103; Dopp, pp.47-48.

• الدراسة التحليلية النقدية المقارنة:

وبتمحيصنا لروايات أخرى تناولت المرأة زمن المماليك الجراكسة، زودنا النبيل الفلورنسى **ليوناردو بن نيقولو فرسكوبلدى** Lionardo Nicolo Frescobaldi الذى وصل بصحبة رفيقه سيمون سيجولى Simone Sigoli وجوسى دى دينو Gucci Di Dino إلى الإسكندرية فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٣٨٤م[١] برواية فيها بعض الجديد الذى يكمل رواية أرنولد.

سجل فرسكوبلدى وصوله إلى القاهرة فى الحادى عشر من أكتوبر سنة ١٣٨٤م[٢]. وذكر أن القاهرة مدينة كبيرة للغاية، ولفت الأنظار أنها تعج بالنساء، وأنهن يمارسن بحيوية بالغة الكثير من الأنشطة التجارية، فهن يتنقلن بنشاط بالغ من القاهرة إلى الإسكندرية ورشيد ودمياط، بل فى كافة أرجاء مصر، كما يفعل تماما كبار التجار. وهذا ما لم يشر إليه أرنولد.

أما فى القاهرة، فيقمن بالتجوال فى ربوعها على ظهور الجياد المزينة، والقادرة على حمل الأثقال. وقد لاحظ أيضاً -كحال أرنولد- أن الجياد تؤجر بصحبة المكارى، وينتشرون فى الميادين العامة والشوارع. وأن هؤلاء لا عمل لهم سوى تأجير دوابهم لنقل كافة الأشياء، بل ولا يقوى الفرد منهم على ممارسة أى عمل آخر. وأورد إنه قيل له آنذاك أنه يوجد بالقاهرة أكثر من ستين ألف من الدواب[٣]، وفى قوله هذا مبالغة واضحة.

والجديد الذى أتى به أيضا أن ملابس النساء كانت عادة من الجوخ. وتتميز هذه الملابس بالحياكة المتقنة. كما ألمح أنه يوجد تحت هذه الملابس تيل رفيع كالشاش. أما الأثرياء من النساء، فكانت ملابسهن تلك، من التيل السكندرى ذات الأثمان الباهظة.

---

(١) Dopp, Lionardo Frescobaldi, t. XXIII, Juin, 1950, p.130.

(٢) Dopp, Frescobaldi, p.131.

(٣) Dopp, Frescobaldi, p.133.

كذلك انفرد فرسكوبلدى بذكر أن بعض النساء كانت ملابسهن قصيرة مصنوعة من القطن تصل إلى الركبتين فقط؛ ولكنه لاحظ أيضا أن تلك الملابس القصيرة، كانت المرأة المملوكية ترتدى فوقها نوعاً من المعاطف يشبه معاطف نساء روما آنذاك، أى معاطف طويلة وتحت الركبة.

وسجل فرسكوبلدى -كغيره من الرحالة الأوروبيين- أن المرأة كانت منتقبة تماما، حتى إنه لا يظهر من وجهها سوى العينين؛ وأن المرأة الأكثر تميزا ورقيا كن يصنعن فوق عيونهن نوعاً من الشاش الأسود -أى برقع- يحول دون رؤية عيونهن، رغم أنهن كن باستطاعتهن رؤية الآخرين تماما من خلاله.

كما تحدث عن أحذية النساء، وقال إنها أحذية مقفولة -أى الحذاء نصفى- وأن الحذاء أبيض اللون. كما أن سيقان النساء مغطاة بطماق -أى واق للساق- وجوارب نسائية تنسدل حتى كعب الحذاء. وكان طرف الطماق يغالى فى زخرفته وتزيينه طبقا للطبقة التى تنتمى إليها المرأة؛ إذ كان نسيج الطماق يرصع بالحرير والذهب والفضة والأحجار الكريمة واللؤلؤ[١].

هكذا، جنح فريسكوبلدى إلى الإسهاب والإتيان بالجديد وذلك فى حديثه عن المرأة. أما رفيقه فى الرحلة ألا وهو **سيمون سيجولى** Simone Sigoli، فقد انفرد بذكر تفاصيل تقاليد الزواج. إذ جاء فى مصدره أنه فى يوم عقد القران، بعد صلاة العصر، يقوم العريس بإرسال عدد من الحمالين إلى منزل عروسه، ويتوافق عددهم فى الكثرة والقلة مع مدى إمكانيات وثراء العريس. ويحمل أحد الحمالين سرير الزوجية، والبعض الطشوت، والبعض الآخر ملابس متنوعة دمشقية الصنع حسب مقاس عروسه. ووفق روايته، تعد حقيقة أجمل ملابس العالم آنذاك.

ويواصل سيمون سيجولين سرده قائلا إن بعض الحمالين يحملون بياضات -أى منسوجات كتانية تستخدم أغطية للسراير- رقيقة وناعمة؛ والبعض الآخر

---

(١) Dopp, Frescobaldi, pp.133-134.

يحمل صناديق وخزانات صنعت خصيصاً لتلك المناسبة، وهى بالغة الجمال والروعة، وتعبر عن مدى ثراء الزوجة. هذا بينما العروس تنتظر آنذاك قدوم المساء. وحين يحل ميعاد عقد القران بحلول الليل؛ ومع وميض المشاعل، يلتف حول العروس جمع حاشد من الحريم. وأورد سيمون أن نساء مصر اعتدن تخصيب أياديهن بألوان ثابتة من الحناء، قلما استطاع الماء إزالتها قبل مضى ستة أشهر؛ وذلك على الرغم من اغتسالهن اليومى فى الحمامات العامة[(١)].

وقبل الزواج، يلتف كل الجيران والأقارب حول العروس، وينهمكن فى تجريدها من ثيابها. وفى منزلها، تنشغل سيدة بوشمها، كما تقوم الماشطة بتمشيطها وتجميلها والنقش على جسدها وصدرها وبطنها وفخديها وساقيها وذراعيها[(٢)].

بعد ذلك، ترتدى العروس ملابسها، إذ ترتدى سبع حلل حسب ثروة الزوجة ومدى أهمية الزواج. وكافة هذه الأثواب مصنوعة من الصوف الأبيض أو القطن الخفيف حسب فصول السنة. ويشهد سيمون سيجولين أن الأقمشة القطنية المصرية تعد أجمل وأثمن أقمشة قطنية فى العالم آنذاك.

وبوصول العروس إلى منزل الزوج، تستل سيفا ضليعا ومعكوفاً من خاصرتها، تمسكه من طرفه، فيتناوله العريس من مقبضه، ثم تتخلص العروس من غمد السيف وتعطيه كذلك لعريسها.

وفى أعماق قاعة المنزل، هناك مرقد للعروسين، يتكون من ست أو ثمان مراتب مغطاة بالكامل بأغطية من الحرير، حيث تجلس عليه العروس، ويوضع بجانبها طشتا دمشقياً رائعاً. حينئذ، كل من ترغب فى الرقص، تقدم الواحدة تلو الأخرى، ثم الجميع معاً. وقبل أن ترقص الواحدة منهن، تتجه نحو العروس لتقدم بعض الهدايا بحسب إمكانياتها المادية، وفى أغلب الأحوال تكون

---

(١) Dopp, Simon Sigoli, p.139. Cf. Also, Meshullam Ben R. Menahem, in the Jewish Travellers, p.168; Dopp, Meshullam, T.xxvi, p.115.

(٢) Dopp, Simon Sigoli, p.139.

بعض المبالغ النقدية أو إحدى الهدايا الذهبية كقرط أو عقد أو خلافه. وتقوم بوضعه على جبهة العروس، وبعد ذلك تبدأ الرقص ثم تأخذ العروس هذه الهدية وتضعها فى الطشت المجاور لها. وبعد أن تنتهى الواحدة من رقصتها، تتبعها أخرى وهكذا[(١)].

هكذا سد سيمون سيجولين فراغاً هائلا فى أسفار الرحالة حين تحدث عن تقاليد الزواج آنذاك، إذ لم يرد ذكره بالتفصيل عند غيره من الرحالة الأوروبيين. ويبدو أنه نسق أو أتفق مع زميله فرسكوبلدى على ما سيتناوله كل واحد منهما. كما نستخلص من روايته -لتفاصيلها ودقتها- أنه كان شاهد عيان لحفل الزواج الذى يكتب عنه، كما استقى بعض معلوماته الدقيقة من أفواه بعض من يتقنون الإيطالية من المماليك.

والملاحظ أن **جوس فان غستل** أنفرد دون غيره من الرحالة بالحديث عن حريم السلطان والحرم السلطانى إذ جاء فى مصدره أن زوجات السلاطين تحت إمرتهن اثنين من الأمراء، وكل أمير تحت إمرته مائتى مملوك، وكل هؤلاء يتم خصيهم، وسبب ذلك أنه لا يسمح لأى رجل التواجد وسط حريم السلطان Harem سوى الخصيان ويطلق على هؤلاء اسم الطواشية[(٢)] .Tauassin

---

(١) Dopp, Simon Sigoli, p.140.

(٢) "الطواشى" الخصى الذى يخدم فى الطباق وفى بيوت الحريم السلطانية، أطلق عليهم أيضاً "الكناينة" أى الذين يعملون فى الأماكن المحرمة. وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة، ويعد شيخهم من أعيان الناس، ولم يكن يلى تقدمة المماليك إلا الطواشى الذى يبدأ أحياناً خادماً صغيراً فى البيوت السلطانية، ثم مربياً لأبناء السلطان أو زماماً أو جمداراً فى الحريم السلطانى، ثم ينتقل بعد ذلك فى الوظائف الطباقية المختلفة حتى يصل إلى وظيفة مقدم المماليك. وكان غالبية الطواشية من الأحباش والروم، جلبوا إلى مصر مع المماليك. وقد حدد أربعة منهم لكل زوجة من زوجات السلطان. للتفاصيل انظر: أبو المحاسن: بدائع الزهور، ج٥، ص ١٥٠-١٥١؛ السخاوى: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع- القاهرة ١٣٥٣هـ- ج٤، ص٣٤٠؛ ج٦، ص١٧٦، ٢٢٦. انظر أيضاً: Schefer, Le Voyage d'outremer De Jean Thenaud, P. XIII. Cf. Ahmad Abd Ar-Rāziq, La Femme Au Temps Des Mamlouks En Egypte, p.4. إذ جاء فى هذا =

والحرم السلطانى حيث النساء مكان فسيح وجميل مغلق علـــى الـــدوام، ويوجد داخل القصر السلطانى، بحيث يستطيع المرء إذا رغب فى التوجه إلـــى حجرات الحريم يمكنه ذلك دون خروجه خارج القصر السلطانى. فمن الســـهل الانتقال من البلاط السلطانى إلى الحرم السلطانى.

ويقص على الرحالة أيضاً أنه عندما يرحل السلطان إلـــى الحـــرب أو يذهب لأداء فريضة الحج، أو يقوم برحلة طويلة الأمد؛ حين يعود ثانية، يجد فى استقباله زوجاته وحريمهن كذلك، ويتراوح عددهن ما بين خمسة إلى ستمائة. وتحتشد هؤلاء النسوة فى قاعة الإيوان، بعضهن يلعبن على آلات متنوعة، كل واحدة حسب قدرتها وإمكانياتها، وأخريات يطربن السامعين بأغان متنوعة، بينما البعض منهن أيضاً يرقصن رقصات تتماشى مع عادات البلاد مما يثير البهجة فى النفوس ويجذب انتباه الحضور على الرؤية والسمع.

وعندما يصل السلطان إلى هذا المجلس، وينضم إلى الحريم والطواشية، حينئذ يختفى الجميع، كما لا نرى على الإطلاق الحريم.

ومما يذكر أن كل حريم السلطان من العبيد تم شرائهن مـــن أســـواق النخاسة، وهن مسيحيات تحولن إلى الإسلام. وجميعهن خليلات الســلطان. وإذا رغب فى إحداهن، لإحضارها كان يرسل إليها خاتما مع أحد الطواشى. حينئـــذ تستعد تلك المرأة فى الحال كما ينبغى، وتتجمل فى أبهى صورة لها حتى تروق للسلطان وتحظى بحبه وإعجابه ولتظل بجواره أطول فترة ممكنة طالمـــا هـــى خليلته. ويتصرف السلطان هكذا مع كل النساء المتواجدين فى دار السلطنة(١).

=المرجع: "... Chacune avait Quatre Eunuques Commis À Sa Garde; Ceux-ci Ne les Quittaient jamais En Quelque Endroit Qu'elles se Rendissent." وترجمة ذلـك:
"... كان لكل زوجة من زوجات السلطان أربعة طواشية مكلفين بحراستها. وكـانوا لا يتركون زوجات سلطانهم فى أى موضع يتوجهن إليه".

(١) Bauwens- Préaux, pp.37-38; Dopp. pp.15-16.

أما **جان ثونو**، فقد تحدث عن النساء فى سياق حديث عن القرافـــة. إذ أورد أن القرافة تشهد كل أيام الجمع، توافد النســـاء لزيـــارة مقـــابر موتـــاهم ويحرصن آنذاك على نثر كميات كبيرة من الـــروائح العطريـــة علـــى مقبـــرة المتوفى: كالياسمين، والريحان، والورد، والزيوت والمياه العطرية. ويقولون إن فى ذلك اليوم، تتنفس روح المتوفى تلك العطور الطيبة(١).

وفى موضع آخر زودنا ثونو بمعلومة لم يذكرها أحـــد مـــن الرحالـــة الأوروبيين مفادها: أنه رغم أن المرأة آنذاك كانت محجبة ولا تبعث على الإثارة على الإطلاق؛ إلا أن المماليك حين يعرفون أن فى منزل مـــا فتـــاة أو امـــرأة جميلة، لا يتورع هؤلاء المماليك عن الدخول عنوة هذا المنزل، ويطردون الوالد والوالدة والإخوة والأزواج وأى أفراد الأسرة خارج منزلهم، ويقومون باغتصاب كافة الحريم بداخله. وأردف قائلا إنه رغم إصدار سلاطين المماليـــك عقوبـــات صارمة على هؤلاء المجرمين، إلا أنهم فشلوا فى القضاء على هذه الجرائم(٢).

هذا وقد حظيت المرأة المملوكية بإعجاب **فيلكس فابرى** البالغ، بســـبب حشمتها والتزامها بلبس الخمار. وذكر أنهن التزمن بتغطية وجوههم بحيـــث لا تظهر بالكاد إلا عيونهن. وحرص على مقارنة المرأة المسلمة الملتزمـــة دينيـــا بالمرأة الأوروبية المتبرجة. ولاحظ حرص الآباء على تزويج بنـــاتهم عنـــدما يصلن لسن البلوغ(٣). ونتيجة عدم إعجابه بأخلاقيات المرأة الأوروبية، أورد فى بداية حديثه أن المرأة هى فى الحقيقة الحيوان المخلوق الأكثر جشـــعا وإثـــارة وخيانة وشهوة وشراسة(٤).

ورغم إعجابه بالمرأة المملوكية، إلا أنه سجل تعدى الرجل على المرأة بالضرب. وأرجع ذلك إلى مشاكل تعدد الزوجات والذى يثير المشاجرات بينهن.

---

(١) Thenaud, p. 51.

(٢) Thenaud, pp.56-57.

(٣) Fabri, t.II, p.574.

(٤) للتفاصيل أنظر: Fabri, t.I, pp.20-23.

وبالتالى يضطر الزوج أحيانا إلى التعدى على المذنبة منهن بالضرب تارة أو العقاب تارة ثانية، ويحدث ذلك أحيانا لأتفه الأسباب(١).

على أية حال، لا ينبغى أن يغرب عن أذهاننا أن المرأة المصرية التزمت التزاماً كاملاً بنصوص الشريعة الإسلامية وكذا بالعادات والتقاليد، التى وقفت حائلا دون تغلغل الرحالة الأوروبيين فى الحياة المصرية، ووصفها عن قرب؛ وبالتالى اكتفوا بتسجيل ما شاهدوه والغريب الذى جذب أنظارهم فى شوارع وطرقات وأسواق واحتفالات المدينة. وكان جمال المرأة القاهرية وحرصها على إبرازه، واهتمامها بمظهرها ونفسها وجسدها وملبسها الجذاب رغم حشمتها ومقارنتها بالمرأة الأوروبية، أهم ما سجله الرحالة الأوربيون حين تحدثوا عنها.

- **عناصر السكان:**

ينتقل **أرنولد** بعد ذلك للحديث عن عناصر السكان فيقول إن عدداً لا يصدق من البشر يقطنون معاً فى منزل واحد. فأحيانا يتعايش فيه عشر أسر أو إثنى عشرة.

كما يوجد فى القاهرة ثلاثون ألف من المسيحيين ينتمون إلى كافة المذاهب دون حساب اللاتين Les Latins ويقصد بذلك المسيحيين الكاثوليك الغربيين، كما يعيش بالمدينة أيضا عشرة آلاف يهودى، وينبغى على هؤلاء دفع جزية سنوية قدرها ثلاث دوكات للسلطان المملوكى عن كل رأس.

ويعود أرنولد ثانية للحديث عن المسيحيين فيقول إن هؤلاء المسيحيين من روم –أى بيزنطيين–، ويعاقبه –أى أقباط–، وشام –أى سريان– لكل طائفة من الطوائف سالفة الذكر بطريركها الذى يقيم فى القاهرة، ويدينون له بالطاعة والولاء فى كافة الأمور الدينية والروحية كحال بابا روما فى الغرب الأوروبى.

(١) Fabri, t.III, pp.516-518.

كذلك للمسيحيين واليهود شارع خاص فى المدينة، أى أن هناك شارع للنصارى وآخر لليهود يغلق عليهم فى المساء(١).



رسم رقم (٨) أحد رجال الدين اليونانيين ممسكاً بمسبحة

وسجل أرنولد أيضا أن بالقاهرة، ينعم كثير من المسيحيين واليهود بالثراء؛ إذ يملك الفرد منهم ما بين ثلاثين إلى أربعين ألف دوكة. أما التاجر المتوسط الحال والمستقر فى العاصمة المصرية، فيمتلك فى العادة ما بين ثلاثين إلى أربعين ألف دوكة؛ والأكثر ثراء يملك أكثر من مائتى ألف. ويعلق أرنولد على ما كتبه قائلا: "قد يبدو ذلك درباً من الخيال؛ إلا أنه الحقيقة المؤكدة". كذلك أورد أن كل العملات الفضية التى يتم صكها فى ألمانيا، يتم إرسال ثلاثمائة ألف منها إلى سلطنة المماليك الجراكسة(٢).

(١) E.von Groote, pp.98; Letts, pp.112-113; Dopp, p.43; Bleser, pp.90-91.

(٢) E.von Grotte, p.98; Letts, pp.113-114; Dopp, pp,43-44; Bleser, pp. 91-92.



رسم رقم (٩) أحد التجار فوق جمله، يقوده تابع

هذا وقد تطابقت روايته سالفة الذكر بدقة مع ما أورده مارينو سانودو Marino sanudo، إذ أدرج ذلك تحت أحداث سنة ١٤٩٧م، وهى سنة وجود أرنولد فى رحلة إلى مصر[١].

على أية حال، فالثلاثمائة ألف عملة فضية المرسلة من دار الصك الألمانية إلى سلطنة المماليك، دفع مقابل نقل السفن الشراعية السكندرية بعض البهارات والأقمشة الحريرية المرسلة إليها من القاهرة للتصدير. هذا وقد أكد أرنولد أيضا وجود كفاية من المعادن النفيسة، كالذهب والفضة فى مصر آنذاك.[٢]

كما سجل أرنولد كيفية التعرف على عناصر السكان قائلا إنه من السهل التعرف بالنظر إلى عمائمهم. فالمسيحى عمامته زرقاء اللون، والمسلم بيضاء اللون، والمملوك – ويسميه الترك كما ورد أحيانا فى بعض المصادر الإسلامية – فعمامته طويلة ومدببة يلف حولها وشاح أبيض طويل، فى حين أن اليهودى عمامته صفراء. وبحثا عن الدقة، زود مصنفه برسم لعناصر السكان الأربعة.[٣]

(١) Marino Sanudo, t.I, p.734.

(٢) E. Von Grotte, p. 98; Letts, p. 114; Dopp, p. 44; Bleser, p. 92.

(٣) E. Von Grotte, p. 97; Letts, p. 113; Bleser, p. 91. وكالعادة لم يرد هذا الرسم أو غيره فى مصنف دون Dopp.



رسم رقم (١٠) عناصر السكان الأربعة

• الدراسة التحليلية النقدية المقارنة:

هكذا انفرد أرنولد بذكر بوجود بطريرك لكل طائفة مسيحية، وقارنه ببابا روما الذى يحظى بمكانة خاصة عند الأوروبيين. وسجل أيضا ثراء المسيحيين واليهود آنذاك. وانفرد أيضا بذكر سهولة التعرف على كافة العناصر السكانية عن طريق ملابسهم التى أتقن رسمها. ويحسب له – عامة – عقد مقارنة بين مصر وأوروبا.

ومع ذلك يؤخذ عليه إغفاله ذكر وجود عناصر سكانية أخرى. فقد ذكر **جوس فان غستل** أن ثمانية عشر ألفاً من المسيحيين[١] يقيمون بمدينة القاهرة:

(١) يؤخذ على فيلكس فابرى قوله إنه "لا زال يوجد بالقاهرة أكثر من اثنين وعشرين ألف من المسيحيين الشرقيين الروم" أى روم أرثوذكس على المذهب الملكانى وليس على المذهب المونوفيزى الذى يعتنقه أقباط مصر. علما بأن الروم الأرثوذكس كانوا يشكلون قلة آنذاك. إذ جاء فى مصدره: "On trouve encore plus de Vingt -Deux Mille Chrétiens Orientaux Grecs". انظر: voyage en Egypte, t.III, p.567. كما لم يشر على الإطلاق إلى أقباط مصر الذين يشكلون الغالبية العظمى من سكان مصر آنذاك.=

منهم أقباط مصر، وإثيوبيين، وأرمن، وجيورجيين، ونوبيين أو من المنتمين إلـــى مذاهب مسيحية أخرى. لكن اللاتين الكاثوليك يشكلون قلـــة نـــادرة، ويلقبـــونهم بالفرنجة[1]. ويقال أيضاً إن بالقاهرة خمسة عشر ألف يهودى[2]، يمارس معظمهم تقريباً حرفاً يدوية[3]. كما يوجد بتلك المدينة أيضاً ميدان كبير خصص لبيع العبيد

= ومن المؤكد أنه اعتقد خطأ أن أقباط مصر يدينون بالمسيحية على المذهب الملكانى كالبيزنطين أى الروم الأرثوذكس. هذا وقد حدد أرنولد فون هارف "مسـيحيى مصـر بثلاثين ألف من مذاهب مختلفة، دون حساب اللاتين". إذ جاء فى الترجمة الفرنسية: "Il y a Dans La ville Trente Mille Chrétiens recensés De Toutes Confessions, Sans competer les Latins." انظر: Dopp, Arnold Von Harff, p.43. وورد فى الترجمـة الإنجليزية: "also in this town there are 30000 numbered Christians of all sects, not counting Latins." أنظر: "Letts, Engl.trans., pp.112-113" وفى جان ثونـو "فـى مدينة القاهرة هذه أكثر من عشرة آلاف من المسيحيين منهم سريان وأقبـاط ويعاقبـة" علماً بأن الأقباط يعاقبة ولا علم للرحالة بذلك. انظر: Schefer, Voyage, p.51.

(١) Bauwens- Préaux, p.20; Dopp,p.9.

(٢) تضارب تعداد اليهود فى مصادر الرحالة الأوربيين. فالرحالة اليهودى الإيطالى المولد عوبديا Obadiah الذى زار القاهرة سنة ١٤٨٨م ذكر أن "بالقاهرة حالياً حوالى سبعمائة أسرة يهودية" إذ جاء فى الترجمة الإنجليزية لأدلر Adler الآتـى: "In Cairo The are now about seven hundred jewish families." (انظـر: Jewish Travellers, p.225). بينما لم يذكر دوب Dopp ذلك فى مقتطفاته عن الرحالة الأوربيين. أما فيلكس فـابرى فقد أورد أن تعدادهم خمسة عشر ألفاً. وانخفض عددهم فى أرنولد فون هـارف إلـى عشرة آلاف، لكنه زودنا بمعلومة جديدة مفادها أنه كان عليهم أن يدفعوا إلى السـلطان جزية سنوية مقدارها ثلاثة دوكات عن كل رأس. انظـر: Dopp, Arnold Von Harff, p.43;Engl. Trans, p.113. وتقاربت رواية جان ثونو مع رواية أرنولد فون هـارف إذ أورد فى مصدره الذى ألفه بالفرنسية القديمة أن "فى هذه المدينة يقطن أكثر من عشرة آلاف يهودى، ولهم شارعهم ومعبدهم (كنيس) وأسواقهم" إذ جاء فى هذا المصدر: "En Ceste Ville Du Cayre Sont Plus De X Mille Juifz Qui Ont Leurs Rues, Sinagogues Et Marchés." انظر: Schefer, voyage, p.51. أما عن شارع اليهود، فقد ذكر عوبـديا "أن اليهودى باستطاعته شراء كافة حاجياته من لحم، وجبن، وسمك، وخضروات وغير ذلك من أشياء لأن كل ذلك يباع فى شارع اليهود". انظـر: Dopp, Obadiah Jaré Da Bertinoro (1488), p.25; Adler, The Letters of Obadiah, p.228.

(٣) Bauwens- Préaux, p.20; Dopp,p.9. هذا بينما اختلفت رواية الرحالة اليهودى عوبـديا وهى الأصح إذ أورد: "من بين يهود القاهرة، من يمارس أعمال الصرافة والتجارة، =

–أى سوق للنخاسة– وهؤلاء سبق أن سقطوا أسرى، واصطحبوا إلى هذا السوق لبيعهم، وينتمون إلى بلدان عديدة[1].

هكذا سجل جوس فان غستل عناصر سكانية جديدة كالإثيوبيين والأرمن والجيورجيين والنوبيين، وقال إن معظم اليهود يمارسون التجـارة، وسـجل – كحال فيلكس فابرى – وجود أسواق النخاسة.

أما الرحالة اليهودى **عوبديا** فقد كان أكثر تفصيلا فى ذكر الحرف التى يمارسها اليهود؛ إذ أورد أنهم يمارسون أعمال الصرافة والتجارة وبعض الأنشطة الصناعية. وبعينيه الثاقبتين الناظرتين على بريق الذهب، أورد أن القاهرة سوق، من يحسن استغلاله، من السهل عليه تكوين ثروات طائلة. هكذا كان – ولا زال – حال اليهود على مر العصور.[2]

● **الحمامات:**

هذا وجذبت الحمامات أنظار **أرنولد** فقال يوجد بالقـاهرة الكثيـر مـن الحمامات تتوفر فيها المياه الساخنة. وهناك حمامات خاصة بالرجـال وأخـرى خاصة بالنساء. وهى مؤثثة تأثيثا يبعث على راحة روادها. ويمر من يذهب إلى

= لأن المدينة كبيرة، وبعض الأنشطة الصناعية متاحة للجميع. ولا يوجد سوق مـوات للتجارة مثل سوق القاهرة، وبالتالى فمن السهل الثراء وتكوين ثروات." انظر: Dopp, Obadiah Jaré Da Bertinoro, p.24; Adler,p.228.

(١) Bauwens- Préaux, p.20; Dopp,p.9. ويسرد فيلكس فابرى قصة طريفة مفادها أنه حين توجه الرحالة إلى مكان مخصص لبيع الرجال –أى إلى سوق النخاسـة– وبصـحبتهم مرشد من المماليك، لاحقهم أحد التجار وتفاوض مع المملوك لشرائهم بعد أن فحصـهم جيداً. فما كان من المرشد أن كاد ينفجر من الضحك وأجابه "هؤلاء العبيد لا يسـاوون شيئاً هنا، لكن فى بلادهم قيمتهم تفوق الخيال". ومع ذلك واصل التاجر تقديم عروضـه المغرية إلى أن قال له المرشد إن هؤلاء رحالة أتوا لزيارة معالم مصـر ومقدسـاتها الدينية ولم يأتوا ليباعوا. انظر: Fabri., III, P.918-919.

(٢) Dopp, Obadiah, p. 24; Adler, Obadiah, p. 228.

الحمام عبر ثلاث إلى أربع حجرات صغيرة، وكل حجرة أكثر دفئا من الحجرة التى تليها، وينتهى به المطاف بالحجرة الأخيرة الرئيسية.

وكانت أرضية هذه الحجرات وجدرانها مكسورة بأكملها بالرخام. ويسخن الماء فى غلايات كبيرة، ويتم تسخين هذه المياه بإحراق روث الجمال خارج الحمامات. ثم تنقل المياه الساخنة بواسطة أنابيب فخارية إلى أحواض رخامية رقيقة، موجودة بكثرة فى الحجرات. وبالتالى يمكن للمرء المتردد على الحمام، الغوص فى إحداها وفق هواه للاستحمام. علما بأن بخار الماء المتصاعد يساعد على تدفئة تلك الحجرات. كما يجد المرء فى خدمته، شبابا يسعون لخدمته، يجيدون فن التدليك الطبى لتليين كافة أجزاء جسده، فيشعر بحيوية بالغة.

ومن الواضح أن أرنولد تردد على هذه الحمامات، إذ يصفها وصفا رائعا فيقول: يبدأ هذا المدلك بجعل المرء يتمدد كأنه فى حالة نوم عميق، ويقوم بتقليبه، ثم يثنى ويمد الأطراف كافة لتليينها وتليين عضلات وأعضاء المستحمين. واستخلص مما تقدم أن سكان القاهرة أكثر خفة وحركة ورشاقة ونشاط من الأوروبيين[١]؛ مما يدل على أن أرنولد يتميز بأنه ثاقب البصر والبصيرة، ويحاول إيجاد تفسير لما يسرده ويحسب له ذلك فى كثير من المواضع.

ويواصل سرده قائلا إن حجرات الحمامات تلك، مسقوفة بقباب مكورة تتكون من مربعات زجاجية، وبالتالى تتمتع بضوء مساو لضوء الشارع، أى أن بها إنارة طبيعية بفضل هذه القباب الزجاجية الشفافة.[٢]

والجدير بالذكر أن الأسر العادية آنذاك لم تعرف الحمامات المنزلية؛ لذا أعتاد الناس على الذهاب – بصحبة ملابسهم النظيفة – إلى الحمامات العامة. وقد اقتصر وجود الحمامات فى قصور السلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة والأثرياء دون عامة الشعب.

---

(١) E. Von Groote, p. 99; Letts, p. 114; Dopp, p. 44; Bleser, p. 92.

(٢) E. Von Groote, p. 100; Letts, p. 114; Dopp, p. 44; Bleser, p. 92.

• الدراسة التحليلية النقدية المقارنة:

ويحسب **لفيلكس فابرى** تزويدنا بوصف للحمامات، فيه الكثير من الاختلاف عن سرد أرنولد. وبالتالى، يعد إضافة إليه. إذ ذكر أنه تردد مع رفاقه على إحدى الحمامات[١] فأبدى إعجابه بفخامة المبنى حتى قال إنه لم ير مثيلا له طوال حياته.[٢]

وقد شبه فابرى الحمام برواق الدير الدائرى، تطل عليه حجرات عديدة بلا أسرة. أما أرضها فهى مغطاة بحصر صنع من القش وكذا بسعف النخيل. وليس للحجرات أبواب بل ستائر من الأقمشة عوضا عنها، تستخدم لتبديل الملابس. وفى كل حجرة مناشف نظيفة يضعها المرء فى وسطه من السرة حتى الركبة. ووسط كل حجرة عين يتدفق منها ماء من فتحات عديدة من خلال عامود رخامى. والملاحظ أن الحوائط والأرضيات الموجودة أمام الحمامات مغطاة برخام أبيض لامع، وبالتالى ينبغى السير عليه بهدوء خوفا من الانزلاق.

بعد ذلك تتشابه رواية فيلكس فابرى مع رواية أرنولد إلى حد كبير حين يبدأ بوصف مبنى الحمام؛ إذ يقول إنه يشبه البرج المربع الشكل، وهو مغطى بقباب يتخللها فتحات مغلقة بنوافذ زجاجية متعددة الألوان، حتى يتسنى دخول الضوء الخافت الكافى للرؤية. وسجل وجود حجرات لتدفئة حجرات الحمام ومكانها تحت الأرضية الرخامية. إضافة إلى أن الدفء ينتشر فى ربوع الحمام، بفضل الماء الساخن الذى يجرى فى قناة محفورة داخل الأرضية الرخامية؛ فى حين أن الماء البارد يدخل من الجهة الأخرى.[٣]

---

(١) أشار إلى ذلك بقوله: "Après le déjeuner, nous entrâmes au bain, et nous nous y Lavâmes" أى "بعد تناول طعام الإفطار، دخلنا للاستحمام فى أحد الحمامات" انظر: Fabri, t. II, p. 511.

(٢) Fabri, t. I, p. 24; t. III, p. 795.

(٣) Fabri, t. I, p. 24.

وفى حديث فابرى عن المكلف بتدليك رواد الحمام أضاف الجديد أيضا حين قال: "إنه يستخدم كريمات ودهانات ليس للتدليك فقط، بل لمعالجة الكثير من الآلام: كالشد العضلى والنقرس وضيق التنفس وأمراض عديدة أخرى". ونتيجة نجاحهم فى علاج الأمراض سالفة الذكر، اعتقد فابرى أن المدلكين يستخدمون السحر فى علاج مرضاهم.(١)

وانفرد فابرى بالقول إن اليهود يُمنَعون من دخول الحمامات، فى حين يسمح للمسيحيين بذلك. وأرجع هذا المنع إلى أن اليهود رائحتهم كريهة، فينفر منهم المسلمون.

أما رفيق فابرى، **برنار دو بريدنبخ**، فقد جنح إلى الإيجاز الشديد، إذ أورد أنه: "ذات يوم، بعد تناول طعام العشاء، بعض منا توجه إلى الحمامات". ويواصل سرده المختصر قائلا إن هذه البلاد عامرة بكم هائل من الحمامات الفخمة، مزدانة بالفسيفساء والرخام المتنوع. واعترف أن المسلمين برعوا فى فن التدليك الطبى لتليين كافة أعضاء جسم رواد الحمامات.(٢) مما تقدم، لم يأت برنار بجديد على الإطلاق؛ بينما فابرى يعتبر مكملا لرواية أرنولد فون هارف.

• مناخ القاهرة:

والجدير بالتسجيل أن **أرنولد** انفرد دون غيره من الرحالة الأوروبيين بالحديث عن الأحوال الجوية للقاهرة. فقد سجل ندرة الأمطار المتساقطة على أراضيها، وقال إن هذه الندرة تعانى منها مصر وكذا بلاد العرب؛ وأن سكان العاصمة المصرية لا يعرفون بالفعل شيئا عن الأمطار والبرق والبرد والرعد. ونادرا ما تمر السحب لتحجب سماء تلك المدينة. وسجل أيضا أن درجات الحرارة تظل دائما مرتفعة.(٣)

---

(١) Fabri, t. I, pp. 25-27; t. III, p. 795.

(٢) Bernard de Breydenbach, p. 61.

(٣) E. Von Groote, p. 99: Letts, p. 114; Dopp, p. 44: Bleser, p. 92.

وتحدث أيضا عن ساعات الليل فى القاهرة وقال إنها لا تقل أبدا عن تسع ساعات. وأورد أنه حريص على الدوام على أن يصطحب معه اسطرلابا فى كافة الأماكن التى يتوجه لزيارتها، ذاكرا أن هذا الجهاز يستعمله فى تعيين ارتفاعات الأجرام السماوية كالشمس والقمر والنجوم، وكذا لمعرفة الوقت والجهات الأصلية.(١) نخلص من ذلك أن أرنولد يعد متحضرا ومثقفا للغاية وبارعا فى علم الفلك، ويتميز بالدقة الفائقة.

• المساجد:

وفى حديثه عن المساجد أورد **أرنولد** أنها لا تحوى على الإطلاق صورا أو تماثيل خشبية أو حجرية أو منحوتة ولا لوحات فنية مجسمة. غير أنه يوجد عدد كبير من المصابيح داخل وخارج المسجد تنير على الدوام إكراما لله عز وجل. وقد قيل لى إن عدد المساجد بالقاهرة قد بلغ ستا وثلاثين ألف مسجدا، وأورد أنه قام بإحصاء أكبر عدد منهم.

وتتميز هذه المساجد باتساعها البالغ، وجمالها الفائق، ولا يوجد أجراس بهذه المساجد، بل يدعو المؤذن المسلمين للصلاة خمس مرات يوميا، ولا يتقاضى المؤذن راتبا شهريا، ولكنه يعتمد على حسنات يجمعها حين يطوف الشوارع مرددا التواشيح الدينية.

وهؤلاء المشايخ أسسوا الكتاتيب – التى يسميها أرنولد مدارس – يعلمون فيها الأولاد القراءة والكتابة باللغة العربية. كما يعلو كل مسجد هلالا من الرصاص أو الحديد(٢)، وفى مواضع أخرى من مصنفه، أورد أرنولد أن سلاطين المماليك حرصوا على تشييد مساجد بالغة الفخامة والروعة والجمال، شيدت فى وسط العاصمة المصرية؛ لتكون مدفنا لهم، وأطلق عليها أسمائهم. وحرصوا وتباروا على صرف مبالغ طائلة لتشييدها وتزيينها وإنارتها؛ حتى إن

---

(١) E. Von Groote, p. 100; Letts, p. 116: Dopp, pp. 44-45; Bleser, p. 94.

(٢) E. Von Groote, p. 101; Letts, pp. 117-118; Dopp, pp. 45-46; Bleser, pp. 95-96.

أحد هذه المساجد به أكثر من مائة ألف مصباح لإنارته على الدوام.[١] وفى قوله هذا مبالغ واضحة.

هكذا حظيت المساجد بإعجاب أرنولد. أما **جان ثونو**، فقد ربط بين كثرة استهلاك العاصمة لزيوت الإضاءة بكثرة عدد المساجد؛ إذ جاء فى سفر رحلته أن القاهرة تستهلك زيتا للإضاءة[٢]. مساو لما تحتسى مدينة أورليان Orleans من النبيذ الناتج عن حصاد القرطم[٣]. وأرجع ثينو سبب ضخامة استهلاك الزيوت فى مصر، إلى أن بها العديد من المساجد التى أحصاها بعشرين ألفا[٤]، وأن فى كل مسجد ما يقرب من ثلاثمائة سراج تضاء عادة على الدوام. ثم إن مساكن هذه المدينة تظل مضاءة طوال الليل؛ كما أن كافة الشوارع تضاء هى أيضا طوال الليل، إذ يتم ذلك عن طريق السراج والقناديل. مما تقدم، ليس من الغريب استهلاك كميات طائلة من الزيوت. كما أنه لا يوجد على الإطلاق شمع مصنوع من شحم الغنم (أى من الدهن)، لكن فقط من الزيوت وشمع العسل الأبيض[٥]. هكذا كان تبرير ثونو منطقيا، إذ حرص على إبداء رأيه من فى كثير من المواضع.

هذا وقد اكتفى الرحالة الذى زار القاهرة فى سفارة مصالحة السلطان الغورى بعد حوالى شهرين من وصول ثينو، ألا وهو **دومينيكو تريفزان**، اكتفى

(١) E. Von Groote, p. 102; Letts, p. 118; Dopp, p. 46; Bleser, p. 96.

(٢) استخدم فى الإضاءة الزيت المضاف إليه الشمع؛ كما استخدم زيت الزيتون لهذا الغرض، فإذا تعذر الحصول عليه أو كان مرتفع الثمن، كان الزيت الحار يستخدم بدلا منه. انظر: Bertrandon de la Broquière, le Voyage d'Outremer, èd. Schefer, Paris, 1892., p. 77.

(٣) القرطم هو حب نبات العصفر. انظر: داود الأنطاكى: تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب – القاهرة ١٢٣٢هـ – جـ٢، ص٨٢. انظر أيضا: المعجم الوجيز، ص٤٩٨.

(٤) Thenaud, p. 46..

(٥) Thenaud. pp. 46-47.

بالقول: "ترى فى القاهرة عددا كبيرا من المساجد الفخمة والرائعة، مساحة البعض منها لا نستطيع تقديرها. وفى أعلى كل مسجد مأذنة للدعوة للصلوات الخمس؛ وأرجع ذلك إلى أنه لا يوجد على الإطلاق أجراس كحال الكنائس". وبذلك أقلت تريفيزان من المبالغة العددية.[١]

هذا بينما أورد **جوس فان غستل** أنه: "يقال أيضاً إن بهذه المدينة عشرة آلاف مسجداً، وهى معابد أقامها المصريون لممارسة الشعائر الدينية الإسلامية كما أوصاهم رسولهم[٢] (ﷺ). وتتميز المساجد بالجمال الفائق وروعة البنيان، إذ يعلوها المآذن الشاهقة، وفى أخرها يرى المرء هلالاً ذهبياً[٣].

والملاحظ تضارب أعداد المساجد بين رحالة وآخر **ففيلكس فابرى** حددها بأربعين ألف مسجد[٤]، **وفرنسسكو سوريانو** بستة عشر ألف[٥]. بينما اكتفى **برنار دو بريدنبخ** بالقول إن "القاهرة تحوى أجمل المساجد بمآذنها الشاهقة، ولا أعتقد أن فى روما عددا من الكنائس مساويا لعدد مساجد القاهرة التى تتسم بالفخامة.[٦]

• معاملة اللصوص:

تطرق أرنولد بعد ذلك للحديث عن اللصوص، فذكر أن اللصوص المقبوض عليهم فى القاهرة لا يتم إعدامهم، بل يتم تقييدهم بسلاسل حديدية فى مجموعات من ثلاثة إلى أربعة أفراد، ويتم تكليف أحد الأشخاص بحراستهم. بعد

(١) Trevisan, pp. 207-208.

(٢) زعم جوس فان غستل أن المساجد شيدت تمجيداً لذكرى الرسول عليه الصلاة والسلام. إذ جاء فى مصدره: "ce sont des temples elevées en L'Honneur De Mahomet, Leur Prophéte." انظر: Bauwens- Préaux, p.19; Dopp, p.8.

(٣) Bauwens- Préaux.p.19; Dopp, p.8; Fabri, t. II, pp. 528; t. III, p.912..

(٤) Fabri, t. III, p. 528.

(٥) Dopp, Francesco, p. 28.

(٦) Bernard de Breydenbach, p. 55.

ذلك يزودنا برواية غريبة مفادها أن كل لص عليه أن يدفع يوميا مدينين أو ثلاثة للسلطان؛ وإلا قام حارسه بضربه ضرباً مبرحاً فى المساء. ولكى يجمع اللصوص المبلغ المطلوب دفعه فى المساء حتى يتفادوا العقوبة سالفة الذكر، كانوا يجوبون المدينة – بصعوبة بالغة – خلال النهار، بسبب الأغلال الحديدية المقيدين بها، ويستجدون الناس طالبين الإحسان. وحين تتاح لهم الفرصة، يسرقون ما تطاله أيديهم، للإفلات من الضرب المبرح فى المساء. ويذكر أرنولد أنه قيل له إن عدد اللصوص بالقاهرة قد بلغ أكثر من عشرة آلاف لص يجوبون شوارعها مكبلين بالسلاسل الحديدية. (١)

هذا ما سجله أرنولد عن العقوبات المفروضة على اللصوص وقد انفرد دون غيره بهذا السرد. أما **فابرى** فقد انفرد بدوره بلقاء أحد السجناء المسيحيين فى قصر الترجمان. وكان داخل زنزانة مغلقة بمتاريس وقضبان حديدية، مقيدا بأغلال حديدية فى قدميه. وبمجرد دخول زنزانته، يقول فابرى إنه نهض وارتمى على أقدامنا طالبا منا – رحمة به – والسعى لإطلاق سراحه. وكان قد أمضى ما يقرب من سنتين فى تلك الأغلال الحديدية، وأوضح أن سبب زجه فى السجن هو شرائه طفلين من أحد الفقراء المسلمين، واصطحبهما إلى جزيرة كريت موطنهما الأصلى، وقام بتعميدهما. ويذكر فابرى أن الشريعة الإسلامية تحرم على المسيحيين شراء المسلمين للحيلولة دون استعبادهم وإكراههم على اعتناق المسيحية. وعند عودته إلى الإسكندرية، وشى به أحد المماليك الذين حضروا هذا الشراء إلى السلطان بذلك؛ وأن سب وشايته تلك، أن المملوك سالف الذكر طلب منه بعض الهدايا لالتزام الصمت، كما أخبره أنه سيعاقب على فعلته تلك عقابا رادعاً. إلا أن السجين الذى كان يعمل بالتجارة لم يعر تهديدات المملوك أى أهمية. وبالفعل تمت محاكمة التاجر، فخير بين أحد ثلاثة أحكام: إما دفع خمسمائة دوكة، أو قبول ختانه والتخلى عن المسيحية واعتناق الإسلام، أو الإعدام. ولم يقبل العروض الثلاثة. وانتهى الأمر بأن تمكن بعض رفاق فابرى

(١) E. Von Groote, p. 106; Letts, p. 128; Dopp, p. 48; Bleser, pp. 102-103.

من جمع خمسمائة دوكة مقابل إطلاق سراحه، ورآه فابرى هو ورفاقه يتجول فى الإسكندرية. (١)

بعد ذلك، مر فابرى بزنزانة أخرى حيث وجد شابا يلبس ثيابا إسلامية، ينتابه حزناً شديداً. وكان هذا الشاب سبق له أن تخلى عن المسيحية واعتنق الإسلام، وتم ختانه. بعد ذلك، رغب فى العودة ثانية إلى وطنه كتالونيا. فاتفق مع الترجمان على الاختباء لديه فى السجن[٢] حتى ينتهز الفرصة المواتية للهرب إلى الإسكندرية والإبحار منها إلى وطنه. (٣)

نستخلص مما تقدم أن بعض الأمراء المماليك كانوا عديمى الإخلاص والوفاء للسلطان المملوكى، مما يؤكد ازدياد نفوذهم على حساب سلطانهم.

ويسرد **برنار دو بريدنبخ** رواية أخرى جاء فيها أنه رأى ثلاثة أسرى مسيحيين، لا تكاد تغطى أجسادهم ملابس تذكر، كما أنهم تم تكبيلهم فى الأصفاد. وكانوا يئنون من قدرهم التعيس. وأقدموا نحونا طالبين الإحسان إليهم. ويذكر برنار أن من عادة القائمين على البلاد السماح للأسرى ثلاثة مرات أسبوعيا الخروج من سجنهم مكبلين فى الأغلال بصحبة حراسهم، ليتجولوا فى الشوارع والطرقات والمنازل طالبين الإحسان من الناس. ويتم تجميع هذه الأموال حتى تخصص لافتداء أنفسهم. (٤)

مما تقدم، يتضح أن المماليك عاملوا بالحسنى سجنائهم الأوربيين.

(١) Fabri, t. II, pp. 412-413.

(٢) أورد المقريزى عدة أنواع من السجون فى زمن المماليك: منها الخاص بالأمراء المماليك والجند – وهو ما يشبه فى يومنا هذا بالسجن العسكرى – ومنها الذى يضم فى جنباته أرباب الجرائم والسوابق، ومنها الخاص بالنساء المذنبات. للتفاصيل انظر: الخطط، جـ٣، ص٣٠٣-٣٠٦.

(٣) Fabri, t. II, pp. 413-414.

(٤) Fabri, t. III, p. 528.

وفى نهاية حديث أرنولد فان هارف عن القاهرة، حرص على تزويد مصنفه بمعجم مختصر لأهم الكلمات العربية الأكثر استخداما فى الحياة اليومية، وكذا بعض الجمل القصيرة؛ كما لم يفته ذكر الأعداد، بل كتب قدر استطاعته حروف الأبجدية العربية. كل هذه المفردات العربية، كتبها كما تنطق باللغة الألمانية. (١)

ويحسب له هذا العمل، لكونه سَهّل على الرحالة الألمان الذين سيأتون بعده لزيارة مصر، التواصل والتفاهم بينهم وبين المصريين. مما جعل رحلته نموذجاً لكتب دليل الرحلات للقادمين لزيارة مصر.

(١) E. Von Groote, pp. 112-115; Letts, p. 129-133; Bleser, pp. 108-110..

الخاتمة:

الحق أن الرحالة الألمانى أرنولد فون هارف صور الكثير من نواحى الحياة اليومية فى مدينة القاهرة زمن المماليك الجراكسة فى عهد السلطان الناصر أبى السعادات محمد بن قايتباى بكثير من الدقة إلى حد كبير. ويتجلى ذلك بوضوح، حرصه على تزويد وصفه بعشرات من الصور التوضيحية التى تتفق مع سرده، فكانت ذات أهمية بالغة.

هذا هو الهيكل العام لرحلة أرنولد. ولقد حرصنا على استخلاص ما سجله ولفت عينيه من غرائب الأمور التى لم يجدها فى وطنه ألمانيا، خاصة وأنه كان حريصا على عقد الكثير من المقارنات فى كثير من المواضع. كما حرصنا على تسليط الأضواء على بعض خصائص تلك الرحلة وتحليلها ونقدها ومقارنتها بغيرها من رحلات الأوربيين المعاصرين له، وإبراز نقاط التوافق والخلاف والمآخذ، والإشارة إلى ما صاحب ذلك من تفصيل أو إيجاز.

ووجدنا – حرصا على عدم تكرار ما توصلنا إليه من نتائج فى صفحات سابقة – عدم إعادة كتابة ما انفرد به أرنولد دون غيره، وما توافق أو تقارب مع غيره كذلك، وما أهمل تسجيله، وما أسهب أو أوجز فى سرده، والمآخذ التى أخذت عليه، والأخطاء التى انزلق إليها، وجنوحه أحيانا إلى تقطيع أوصال سرده ليعيد استكماله بعد صفحات؛ كحال حديثه عن المرأة على سبيل المثال لا الحصر. كل هذا فى ضوء الدراسة التحليلية النقدية المقارنة مع الرحالة الأوربيين المعاصرين له والذين زاروا القاهرة آنذاك. فكل ما تقدم، سلطنا عليه الأضواء جيدا قدر الاستطاعة، ولا داعى لإعادة ذكره منعا لملل التكرار.

مما تقدم، تعتبر هذه الرحلة حلقة من حلقات التاريخ الحضارى للقاهرة فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى / أوائل القرن العاشر الهجرى، كما تعد إضافة جديدة إلى المكتبة العربية عامة ومكتبة أدب الرحلة خاصة.

فهرس المحتويات

الأستاذ الدكتور/ فايز نجيب اسكندر

أستاذ تاريخ العصور الوسطى – ورئيس قسم التاريخ سابقاً

كلية الآداب – جامعة بنها

عضو اللجنة العلمية لترقية الاستاذة المساعدين (٢٠٠١-٢٠٠٤)

عضو لجنة تحكيم أبحاث الأساتذة المساعدين منذ ٢٠٠١ إلى الآن

أهم الأبحاث والكتب العلمية:

١- "أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين": الاسكندرية ١٩٨٢م.

٢- "أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة": الاسكندرية ١٩٨٣.

٣- "دراسة لاتفاقية تجارية بين إمبراطورية طرابيزون وجمهورية البندقية سنة ١٣٦٤م": الاسكندرية ١٩٨٣م.

٤- "أسرة برينيوس ودورها في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية": القاهرة ١٩٨٧م.

٥- "المقاومة الإسلامية في مواجهة العدوان الصليبي على تونس": القاهرة ١٩٨٧.

٦- "استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية أني سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤": القاهرة ١٩٨٧م.

٧- صدى معركة ملا ذكرد في القسطنطينية": القاهرة ١٩٨٧م.

٨- "الحياة الاقتصادية في أرمينية إبان الفتح الإسلامي":

9- "LES RICHESSES DE L' ARMENIE AU TEMPS DES BAGRATIDES (885-1045), LE CAIRE, 1988

١٠- "الحياة الاقتصادية في الشمال الافريقي في عهد الوندال" (٤٢٩-٥٣٤م): القاهرة ١٩٨٨م

١١- "مصر في كتابات الحجاج الروس في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين": القاهرة ١٩٨٨.

١٢- "غزو الإمبراطورية البيزنطية لأرمينية": القاهرة ١٩٨٨م.

١٣- "بلاد الكرج (= جورجيا) بين المسلمين والبيزنطيين حتى أواخر القرن الثاني الهجري/ أواخر القرن الثامن الميلادي": القاهرة ١٩٨٨م.

١٤- "تسامح صلاح الدين مع الصليبيين في ضوء حولية هرقل": الكويت ١٩٨٩م.

١٥- "المشرق الإسلامي في مواجهة تحالف المغول والأرمن": القاهرة ١٩٩٠م.

١٦- "شارلمان والفتوحات الإسلامية لجزيرة كورسيكا": القاهرة ٢٠٠٣م.

١٧- "رسائل بيير دو كونديه عن العدوان الصليبي على تونس": الاسكندرية ١٩٩٢.

١٨- "الكرج (جورجيا) والاتراك السلاجقة في عهد داود الثاني" المؤرخ العربي العدد الأول: القاهرة ١٩٩٣م.

١٩- "المسلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني المعاصر سبيوس": اليمن ١٩٩٤م.

٢٠- "بطرس الناسك والحملة الشعبية سنة ١٠٩٦م": القاهرة ٢٠٠٢م.

٢١- "دور العامة في معركة المنصورة (٨ نوفمبر ١٢٥٠م/ ٤ من ذي القعدة ٦٤٧هـ)": صنعاء ١٩٩٦م.

٢٢- "الأرمن بين الصليبيين والأيوبيين" (٥٦٧- ٦٤٨هـ/ ١١٧١-١٢٥٠هـ): القاهرة ١٩٩٨م.

٢٣- "الأشرف خليل وفتح قلعة الروم (= المسلمين)": القاهرة ١٩٩٩.

٢٤- "نيكيتاس خونياتس واعترافه بتسامح المسلمين وبربرية الصليبيين": بيروت ١٩٩٩م.

٢٥-"متى الرهاوي والحملة الصليبية الأولى": القاهرة ٢٠٠٠.
٢٦-"المسلمون والصليبيون في معركتي المنصورة": جامعة المنصورة ٢٠٠٠
٢٧-المؤرخ الارمني فردان وكتابة السيادة الإسلامية على أرمينية": القاهرة ٢٠٠١م.
٢٨-"الصليبيون والفاطميون والزنكيون في معركة البابين" ١٨ مارس سنة ١١٦٧م/ ٢٥ جمادي الأولى سنة ٥٦٢هـ: جامعة المنيا ٢٠٠٣م".
٢٩-"بنيامين الأول – البطريرك الثامن والثلاثون – بين نهاية العصر البيزنطي وبداية الفتح الإسلامي لمصر" (٦٢٣-٦٦٢م): القاهرة ٢٠٠٣م.
٣٠-"حولية تور والجديد عن الحملة الصليبية الخامس علي مصر": القاهرة ٢٠٠٤م.
٣١-"الوندال في الشمال الأفريقي في كتابات فيكتور فيتنسيس": القاهرة ٢٠٠٣.
٣٢-"موقف الأرمن من ثورة بابك الخرمي": القاهرة ٢٠٠٥
٣٣-"كتابات ابن إياس وابن زنبل عن الفتح العثماني لمصر": القاهرة ٢٠٠٧.
٣٤-"مملكة الفرنجة بين اللمبارديين والبابوية زمن ببين القصير" ٧٥١-٧٦٨م القاهرة ٢٠٠٧م.
٣٥-"ابن إياس وتأريخه للفتح العثماني لبلاد الشام": القاهرة ٢٠٠٧م.
٣٦-"دمشق والفتح الإسلامي لأرمينية" (١١-٤٠هـ/ ٦٣٢ – ٦٦١م): القاهرة ٢٠٠٦م.
٣٧-"حمص في مواجهة تحالف المغول والأرمن" (١٤ رجب ٦٨١هـ/ ٣٠ أكتوبر ١٢٨١م): القاهرة ٢٠٠٨م.
٣٨-"صموئيل داني وتأريخه للمسلمين والأرمن": القاهرة ٢٠٠٨م.
٣٩-"الفتح الإسلامي لجورجيا": القاهرة ٢٠٠٨م.
٤٠-"سبيوس – المؤرخ الأرمني المعاصر للفتوحات الإسلامية – وصورة الآخر": القاهرة ٢٠٠٩م.
٤١-"مشروع حملة صليبية لاستعادة الأراضي المقدسة المنحول لبروكردوس" (١٣٣٢م/ ٧٣٧هـ): القاهرة ٢٠١٠م.
٤٢-"القاهرة زمن المماليك الجراكسة في عيني الرحالة جوس فان غستل" (١٤٨٢-١٤٨٣م): القاهرة ٢٠١٠م.
٤٣-"ديديموس الضرير مدير مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ٣١٣-٣٩٨": الاسكندرية ٢٠١٠م.
٤٤-"تجارة مملكة أرمينية الصغرى مع المدن الإيطالية وسلطنة المماليك البحرية" (١١٩٨-١٣٧٥م/ ٥٩٥-٧٧٦هـ): القاهرة ٢٠١٠م.
٤٥-"الفتح الإسلامي لأرمينية": القاهرة ٢٠٠٧م.
٤٦-"القاهر زمن المماليك الجراكسة في كتابات الرحالة الفرنسي جان ثونو": الاسماعيلية٢٠٠٨م.
٤٧-"علاقة الميروفنجية بأدواق أكيتانيا في عهدي شارل مارتل وببين القصير": القاهرة ٢٠٠٩م.
٤٨-"علاقة الأمويين بالأرمن في ضوء حولية غيفوند": القاهرة ٢٠١١م.
٤٩-**"القاهرة زمن المماليك الجراكسة في كتابات الرحالة الألماني أرنولد فون هارف": تونس ٢٠١٢م.**
٥٠-"مملكة أرمينية الصغرى بين المسلمين والصليبيين والمغول في كتابات المؤرخ سمباد": القاهرة ٢٠١٢م.